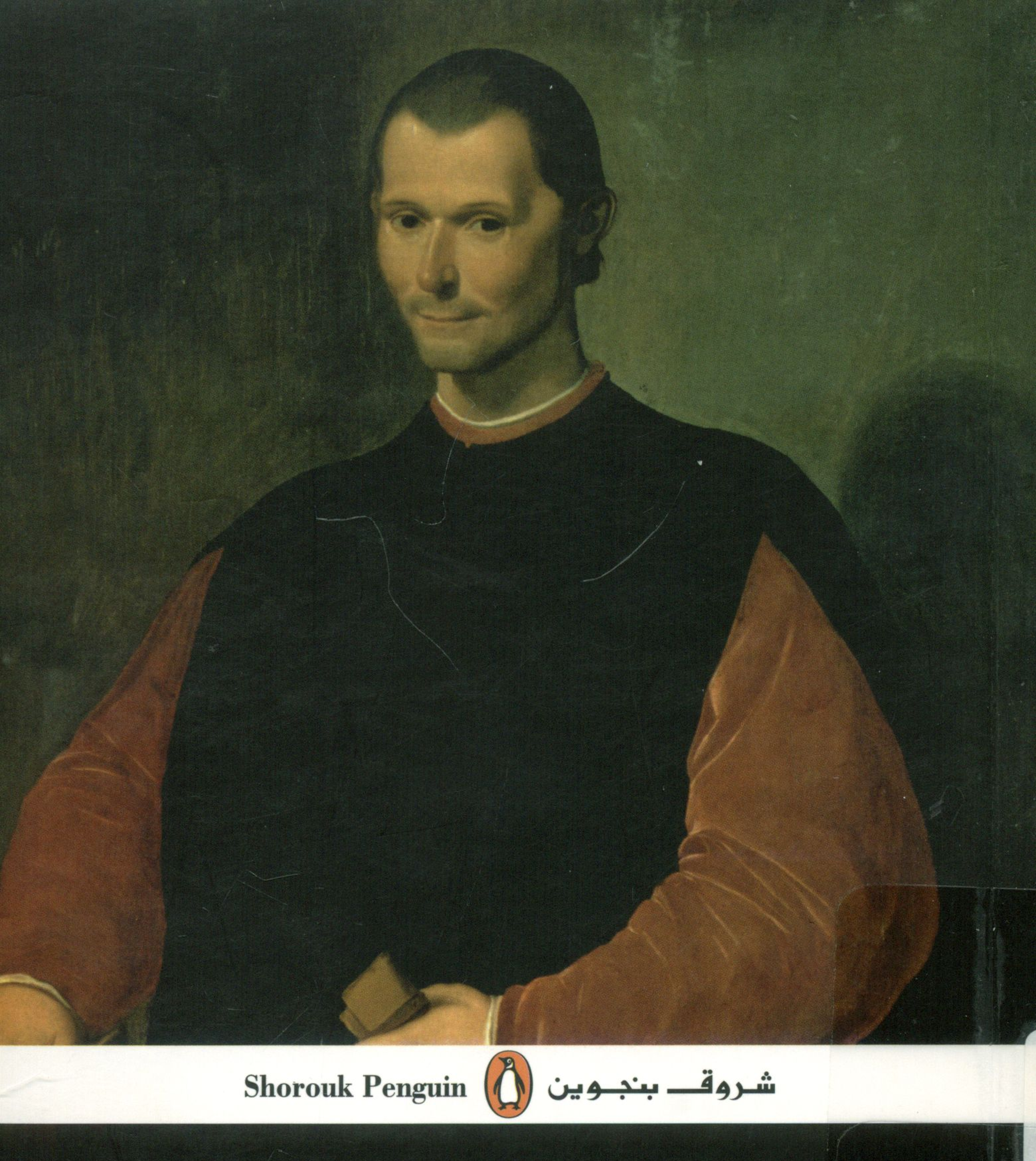


Shorouk Penguin شروق بنجوين

نيقولو ماكيافللي

الأمير

Shorouk Penguin شروق بنجوين

كانت روائع الأدب العالمي قبل ظهور سلسلة كلاسيكيات بنجوين في الأربعينيات من القرن الماضي مجال اهتمام الطلاب والأكاديميين في المقام الأول. وقد غيرت كلاسيكيات بنجوين ذلك بجعل أفضل الروائع متاحة لأوسع دائرة ممكنة من القراء. وقد بدأت السلسلة في نشر باكورة أعمالها عام ١٩٤٦ بترجمة الأوديسة لهوميروس التي حققت نجاحًا فوريًّا، وبيع منها ما يربو على ثلاثة ملايين نسخة، ليتضاعف عدد كلاسيكيات بنجوين على مر السنين، وتصل عناوين السلسلة اليوم إلى ١٧٠٠ عنوان.

ويهدف مشروع النشر المشترك هذا مع دار بنجوين إلى إصدار روائع الفكر والأدب العالمي في طبعات جديدة كاملة لقراء العربية، ولاختيار بعض كنوز الإبداع العربي ضمن السلسلة. ويعد هذا المشروع علامة بارزة في مسيرة دار الشروق، تأمل من خلاله أن يمثل نقلة نوعية في حركة النشر والترجمة، تثري المكتبة العربية وتلبي وتنمي حاجات القراء العرب.

وقد توخى المشروع في اختيار الأعمال التي يفتتح بها السلسلة الجمع بين إعادة الاعتبار لبعض روائع الترجمة العربية للكلاسيكيات لمفكرين ومبدعين مصريين وعرب قاموا بترجمة هذه الأعمال منذ عقود خلت، وبين بعض الترجمات الجديدة، وهو الأمر الذي يسعى هذا المشروع إلى المضي فيه بحيث نحافظ على الكثير من الترجمات الرائدة المهددة بالاندثار، في الوقت نفسه الذي نسهم من خلاله في إغناء المكتبة العربية بترجمات جديدة ذات قيمة رفيعة.

The Prince by Niccolò Machiavelli

Published by Dar El Shorouk
in association with Penguin Books Limited.

الأمير

نيقولو ماكيافللي

ترجمة وتعليق محمد مختار الزقزوقي

صورة الغلاف رسم سانتي دي تيتو
تم نشرها بالاتفاق مع Bridgeman Art Library

المحرر العام للسلسلة: منى عبد العظيم أنيس

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٢

الطبعة العربية الثالثة ٢٠١٥

٨ شارع سيبويه المصري مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
www.shorouk.com
رقم الإيداع ١٧٢٣٤/ ٢٠١٢
ISBN 978_977_09_3169_1

ماكياڤللي

وكتاب الأمير

ترجمة وتحليل وتعليق

محمد مختار الزقزوقي

Shorouk Penguin شروق - بنجوين

فهرس المحتويات

تقديم الترجمة العربية
محمد مختار الزقزوقي

شهدت النهضة الأوربية هوى روادها العنيف من أجل اجتلاء أنسجة العالم الهامة؛ وكان من بين أعقدها النسيج السياسي الذي انتزعه نيقولو ماكياڤللي من مكانه ليحلله فمزقه في جرأة هادفة، وحماس قاس، وبروح موضوعي جاف - وجميع هذه المعاني مظاهر الإحساس بمدى النهضة وعمقها، وهي تغري العقل بواجب تحرير طاقات الإنسان المبدعة. أخذ ماكياڤللي يحلل عقد هذا النسيج بسداته ولحمته، فدار في إحدى محاولاته حول صانع النسيج نفسه، يدرس طبيعته، ويصور القانون الذي يحكمها، بعد أن استقرأ شتى انطباعات الطبيعة البشرية على وجه التاريخ السياسي، ثم أودع نتائجه في كتيب ما زال التاريخ يخلده، إذ هو من أهم المراجع الأساسية في فنون السياسة والحكم، وأساليب النفوذ والسلطان. ولكن ما جاء في الكتاب من أفكار جعل صاحبه مرادفًا للشيطان تارة، وعدوا للأخلاق تارة أخرى. إنني أعني «كتاب الأمير» الذي أريد به تصوير قواعد فن المسرحية السياسية الخالد، وتحذير الحاكم من آفات الحكم الضعيف في طبيعته وأساليبه وغاياته. ولقد كانت إيطاليا حينذاك خالية من الديموقراطية الحديثة فيما عدا قدرًا ضئيلًا جدًّا، ومن هنا عد الكتاب موردًا للطغاة والمستبدين يردون إليه حين

تستبد بهم شهوة نهمة لإحكام السيطرة على الشعوب وشدها بشتى القيود، وذلك بدلًا من أن يكون دليلًا لأنصار الحكم الديموقراطي القومي الصحيح، يدلهم إلى أن لواء الأمة الواحدة لابد من أن ترفعه يد دولة واحدة، تكون «كإله يمشي على الأرض» - حدود أخلاقها الوطن الحر، وحدود حرية الوطن النظام، وحدود النظام المصلحة العامة، وحدود المصلحة العامة السيادة والقوة من جهة، والعدالة والثراء من جهة أخرى. ولا ضمان لهذه العدالة وتلك السيادة سوى جيش وطني قوي كأسنان التنين يحمي العرض والأرض من النفوذ الأجنبي، وقوانين عادلة تحمي جميع المواطنين، وتؤثر أصحاب «القدرة»، وتثيب العاملين، وتدين المتخلفين، وتعاقب المقصرين، وتحاسب المفرطين في «حق الدولة». وعلى رأس الدولة قيادة عسكرية سياسية، أو سياسية عسكرية؛ لأن المشكلة السياسية والمشكلة العسكرية مشكلة واحدة لا تقبل تقسيمًا، هذا إذا أردنا للوطن مكانة فوق جبهة الشمس، وللأمة عظمة ومجدًا، و«للجماعة» الوجود في أروع مظاهره.

ولكن ما السبيل إلى إبراز جميع ملامح مذهب ماكيافيللي هذه وغيرها، وأنا أتناول بالدراسة واحدا من مؤلفاته دون الأخرى، وهو أكثرها مرارة وإثارة وفتنة؟ إنه «كتاب الأمير». ولكن هذه الفتنة وتلك المرارة كانتا مثار اللهفة على محاولة هضم نصوصه، ووضعها في إطاراتها التاريخية والسياسية والعسكرية؛ بشرط ألا أجعل مجرى الكتاب ينحو في اتجاه يتجاوز الحدود التي رسمها ماكيافللي لفكرته، ومن هنا كان لابد من أن أصحبه خلال شتى آثاره وكتبه، وعند شراحه ونقاده، ومع تلاميذه ومريديه، وفي زمرة مهاجميه ومحبيه. وفي النهاية، اجتررت آثار هذه الصحبة العقلية وصببتها

فـي قالب هذه الدراسـة التي أطمع في أن أسـد بها بعـض النقص في مكتبتنا العربية.

وإذ أشـرف على خاتمة هـذا التصدير أحس ببعـض المعاني تثور في شـتى اتجاهات النفـس، إلا أني أجدها جميعًا تـدور حول حقيقة واحدة أو من بها وتملأ عليَّ نفسـي، ألا وهي ضرورة النظر إلى شـتى المذاهـب والأفـكار السياسـية - حتى ولـو بدا لنا أنها قطعت شـوطًا بعيـدًا على جادة الصواب - من خلال نافذة واحدة عالية، لها حرمتها وقدسيتها، وهذه هي نافذة «الوطن»، وعلى أساس «ما يناسب حقوقه ومصالحه»، وما يتصل بذلك من «واجبات». و«ما أنذلنا إذا فعلنا من أجل أنفسنا ما نفعله من أجل الوطن».

والله أكبر، والعزة لأمتنا العربية، والمجد لجمهوريتنا الفتية.

محمد مختار الزقزوقي

القاهرة في ٢٢ ديسمبر ١٩٥٨

مقدمة الطبعة الإنجليزية

أنطوني جرافتون*

الطاغية يُرهب رعاياه. يطل على العاملين من علياء قصره الحصين مستطلعًا بعيون جاسوس أشام، ويقترب من الفريسة أو المفترسين بحساسية عنكبوت يتوازن بخفة في قلب نسيج عنكبوتي، ويهيمن على حياة جميع من حوله. يكتسب سمعة على حساب إنجازات رجال أكثر نبلًا أنفقوا مالهم في مشروعات عامة، كالكنائس الضخمة وغير ذلك من الأبنية الأنيقة. يقيم حفلات لتسلية سفراء القوى الأجنبية، ويتخذ قرارات تضر بمصالح الرعايا من دون استشارة أحد عدا المقربين إليه. ويحيل دولته بكاملها إلى وسيلة لكسبه الخاص ولكسب بعض أصدقائه. وهو لا يكف عن تجريد الأثرياء مما يملكون أو السيدات الطاهرات صغيرات السن من عفافهن. ويواجه المخاطر كافة التي تعترض انفراده بالسلطة بوحشية ضارية.

هذا الوصف لأمير- منعزل، أثيم، وحشي بصورة طاحنة في مواجهة من يقفون في طريقة- يبدو لأول وهلة وكأنه صفحة شاردة من أمير ماكيافللي، الكتاب الذي يلقن دروسًا في الأساليب التكتيكية الفعالة للحاكم المطلق؛ ذلك الأمير الذي يرى كثير من القراء أنه

* المؤلف هو: أستاذ تاريخ الفكر الأوربي في جامعة پريستون بالولايات المتحدة الأمريكية. وكتب هذه المقدمة لطبعة البنجوين عام ١٩٩٩.

يدعـو إلى القسـوة وربما يمجد أيضًا بإراقة الدمـاء. لكنه، في الواقع، اقتبـاس من مصـدر مختلف جـدًّا: بحث حـول الحكم في فلورنسـا للراهـب الدومينيكاني جيرولامو سـافونارولا الذي تتطابق سـنوات هيمنتـه على السياسـة الفلورنسـية، من ١٤٩٤ إلـى ١٤٩٨، مع بداية مرحلـة النضج الفكري عنـد ماكيافللي. والواقـع أن خطوط التوازي بيـن هذين الرجليـن المختلفين جدًّا لافتة للنظر. عاش سـافونارولا، مثل ماكيافللي، حياة عامة نشـطة، يحاول حماية الشـكل الجمهوري للحكومـة الذي كان يرى أنه الشـكل الأمثل لفلورنسـا، وكتب أبحاثًا مكثفـة قويـة التصويـر عـن قضايـا السياسـة. ومثـل ماكيافللـي، كان سـافونارولا مغرمًـا بالـمُثـل الكلاسـيكية: آمـن بـأن الرومـان كانوا قـد ابتدعـوا جمهوريـة كانت، حتى إن لـم تكن نموذجيـة، جمهورية تحتـذى- جمهوريـة جعلت عاداتهـا القانونيـة من مواطنيهـا فعالين مـن خلال إتاحة الفرصة لهم بالمشـاركة المنتظمة فـي الحياة العامة. ومثـل ماكيافللـي، خـاض سـافونارولا بكامـل الحريـة الأحـداث السياسية في أقسى أحوالها. وعرف الأساليب التكتيكية لطغاة إيطاليا وسـيكلوجياتهم، كما عرف التقاليد المحلية للجمهورية الفلورنسية، وذلـك على النحو الـذي أوضحه تصويره للحاكم الطاغية. والأسـوأ أنـه عـرف ما معنى أن يفقـد دعم أولئـك الذين يعنون لـه الكثير. فقد أدى تصديـه لسـلطة بابـاوات رومـا إلى صـدور قـرار بالحرمان ضد زملائـه الفلورنسـيين؛ ممـا تسـبب في تعريـض أملاكهم ومنشـآتهم التجارية للخطر، وانقلب عليه كثيرون. وفي اجتماع طارئ، علق أحد المواطنيـن البارزين قائلًا: إن سـافونارولا مسـتحق للدعـم، لكنه لن يحصـل عليه لأننا «ثابتون في إيطاليا على ما نحن عليه». «إن للملكية فـي إيطاليا أهمية أكبر مـن الولاء»- عبارة كررهـا ماكيافللي فعلًا في

كتاب الأمير ملاحظًا أن الرجال يمكن أن ينسوا أن فقدان آبائهم أسرع من فقدان أملاكهم. وأخيرًا، شهد سافونارولا، مثل مكيافللي، انتهاء سيرته السياسية بكارثة. لقد واجه مؤلف الأمير النفي السياسي بلا محاكمة ولا اتهام، كما تعرض المبشر الدومينيكاني لعقوبة الإعدام العلني في ميدان بياتسا ديللا سينوريا وأصبح، بالنسبة إلى ماكياڤللي، النموذج الأصلي للنبي الأعزل الذي لابد أن تنتهي سيرته، في عالم الواقع، بكارثة.

يبدو أمير ماكياڤللي، حين يأتي المرء إلى قراءته من دون معرفة بسياقه، ككُتيِّب مبهم؛ كُتيِّب تنطبق مفاهيمه على مؤسسة حديثة كما تنطبق على دولة عصر النهضة. لكن ماكياڤللي، مثله مثل سافونارولا، كان من عدة جوانب، نتاجًا مميزًا لفلورنسا؛ تلك المدينة التي ترعرع فيها، وخدم في حكومتها من عام ١٤٩٨ إلى عام ١٥١٢، وألف من أجلها سلسلة باهرة من الكتب الأصيلة التي مازال حيًّا في الذاكرة بسببها أكثر من أي شيء آخر: وبالأخص كتاب الأمير، وكتاب تعليقات على العقد الأول لليفي، وكتاب تاريخ فلورنسا، وقصة نبات الماندراجولا. إن ولع ماكياڤللي بالقضايا السياسية، وحبه العارم للحديث عن الشخصيات المهمة والأمور الخطيرة، وسعيه الحثيث إلى وضع القواعد التي تتيح إمكانية التنبؤ بالطرق التي يمكن أن يستجيب بها الناس للتحديات والأزمات السياسية- كل هذه السمات الشخصية والعقلية الخاصة، وغيرها كثير، شاركه فيها عدد كبير من شباب وطنه. وهذه هي التجارب السياسية التي أدت به إلى حد التخلي عن العقائد الفلورنسية حول بعض الأمور الحيوية. وكتاب الأمير، في شكله ومضمونه، يدين بالكثير جدًّا للمجتمع

الفريد والثقافة الخاصة الذين نشأ فيهما المؤلف وعمل وفكّر وواجه أزمته السياسية.

كانت فلورنسا التي عرفها ماكيافللي ودعمها هي إحدى أهم جمهوريتين عظميين ظلتا مزدهرتين حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر بين الدول الكبرى، خصوصًا ميلانو والدول البابوية ونابولي؛ تلك الدول التي كانت قد فرضت سيطرتها على شبه الجزيرة الإيطالية. وبرغم كونها إحدى المدن الكبرى في أوربا، فقد واجهت فلورنسا معانيات شديدة في سنوات الوباء الذي تفشى في القرن الرابع عشر، وتقلصت صناعة النسيج الفلورنسي - العمود الفقري لازدهار المدينة في العصور الوسطى - كما تقلصت القطاعات السكانية الأوربية التي كانت تشتري منتجاتها. لكن المدينة استطاعت، في القرن الخامس عشر، أن تزدهر من جديد على المستويين الخاص والعام، حتى إن لم تعد في موضع مقارنة مع قوة الجمهورية المستقلة العظمى الأخرى: البندقية. وواصل رجال البنوك والتجار جمع ثروات طائلة؛ وعوضت الصناعة الحريرية الجديدة بعض خسائر الدخل التي نجمت عن تدهور تجارة الصوف. وأصبحت فلورنسا مركزًا للدولة الإقليمية؛ تلك الدولة التي شملت مدنًا مستقلة من قبل مثل بيزا وليفورنو. كما أنشئت مؤسسات جديدة مختلفة لمواجهة المشاكل العملية الناشئة، بدءًا من منظومة جديدة للضرائب قائمة على أساس الملكية إلى أسطول شراعي قاعدته بيزا.

أصبحت المدينة أحد مراكز الثقافة الكلاسيكية الجديدة المطعمة بالعناصر الهيومانية لعصر النهضة: المعلمين والمثقفين الذين ساهموا

في إنشاء المدارس والمكتبات لدراسة الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية. في المدن الأخرى، مثل ميلانو، كانت مثل هذه الدراسات تعتمد بصورة أساسية على دعم أحد الرعاة. أما في فلورنسا، فإن هذه الدراسات كانت، بالعكس، على علاقة وثيقة بنخبة المدينة والحكومة المحلية. وقد نشأت في فلورنسا أول أعظم مكتبة علمانية عامة في العصور الحديثة، وهي مكتبة سان ماركو التي أسسها جامع كتب وخبير نبيل هو نيقولو نيقولي. وبدءًا من السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر، قام أمناء المدينة - كبار المسئولين الذين كانوا يحررون المراسلات والدعاية الرسمية- منذ كولوتشو سالوتاتي فصاعدًا، بدعم دراسة الكلاسيكيات. وقد استخدم هؤلاء وشباب المثقفين الذين تعاونوا معهم، مثل ليوناردو بروني، شواهد التاريخ الروماني للفت النظر إلى أن فلورنسا نفسها خلف مباشر وكفء لروما الجمهورية، وتقوم على الفكر السياسي لكل من شيشرون وأرسطو؛ وذلك لإظهار المستوى الجيد للحياة الراهنة التي يعيشها المواطنون الفلورنسيون. وبعبارة أخرى، كانت المدينة قد أصبحت قبل الفترة التي عاش فيها ماكياڤللي بوقت طويل مركزًا للأسلوب الكلاسيكي الجديد في التعليم والثقافة. وابتداءً من منتصف القرن الخامس عشر، دأب النبلاء والموظفون الحكوميون يستشهدون بأمثلة كلاسيكية في مجرى المناظرات العامة لتبرير الخيارات السياسية. بل أصبحت طريقة المناقشة السياسية أكثر كلاسيكية. وقد أدت الثورة الفنية للقرن الخامس عشر، التي بدأت في فلورنسا، إلى تغيير ملامح المدينة بصورة جذرية؛ حيث بدأت أسر تتجه بصورة مستقلة إلى توسيع رقعة المدينة بامتلاك حيازات واسعة من الأراضي بنوا عليها قصورًا ضخمة فظة في أشكالها بواجهات ريفية وأفنية

معمَّدة. وعلى خلاف منازل التجار القديمة، أصبحت دكاكين الطابق الأرضي مفتوحة على الشارع، وارتفعت أبنية كلاسيكية ضخمة، وهي الآن مغلقة وتذكارية[٢].

كما أن تلك المناقشات الفلورنسية للقضايا السياسية ذات الأسلوب الكلاسيكي جدًّا عنيت بالمسائل العملية. وفي خلال القرن الخامس عشر، ظلت المدينة باقية بعد سلسلة طويلة من الحروب المضنية: مع جانجالتسو فيسكونتي دوق ميلانو، ولاديسلاس ملك نابولي، وغيرهما. وشيئًا فشيئًا، فإن الأساليب التي فرضتها هذه الحروب أصبحت، بدورها، شيئًا لا تتحملها حكومة النموذج الجمهوري للمدينة. وفي عام ٣٣-١٤٣٤، عاد كوزيمو دي ميدتشي الذي كان قد نفاه معارضوه من فلورنسا إلى المدينة. والواقع أنه لم يسقط الجمهورية القائمة، ولكنه استطاع أن يتلاعب بها ويحولها بمهارة من خلال الإجراءات التي اتبعها في اختيار أعضاء لجان الحكم في المدينة بالقرعة. وقد أصر كوزيمو على أنه المواطن الفلورنسي الوحيد، حتى إن مادحيه كانوا يطلقون عليه فحسب أي «أبو البلاد»، وذلك على الرغم من النطاق الواسع لسلطاته وبرامجه البناءة التي تجعل منه ذا منزلة رفيعة في المدينة.

وفي الجيلين التاليين، صعد آل مديتشي باعتبارهم الحكام الطبيعيين للمدينة، وذلك على الرغم من بقاء المؤسسات القديمة للجمهورية. ترك لورنتسو الأعظم حفيد كوزيمو عددًا من الأسئلة مفتوحًا عن نطاق سلطاته. لقد عاش سفراء القوى الأخرى معه فعليًّا في قصر آل مديتشي، وكان يتفاوض بنفسه في الأزمات العامة الأكثر خطورة التي تواجهه، مثل الحرب التي شنها البابا سكستس الرابع

وفرّانتي مالك نابولي ضد فلورنسا عام ١٤٧٨، وذلك بعد أن فشل أطراف من عائلة كبرى أخرى (عائلة باتسي) في محاولتها اغتيال لورنتسو. وفي القرن السادس عشر، حين قامت القوى الأجنبية بتدمير إيطاليا وفقدت إيطاليا ما حققته في القرن الخامس عشر من استقلال، جعل الناس يذكرون عهد لورنتسو باعتباره عصرًا ذهبيًّا استطاع فيه بفضل مهاراته الدبلوماسية أن يحقق توازنًا مع القوى المنافسة لإيطاليا، وعزز فيه دعمه ورعايته لفنانين رائعين مثل بوتيشيلي وكتاب مثل بوليتسيانو. وقد ألف لورنتسو نفسه العديد من السونتات وأغاني كرنفالية من بينها مجموعة أعماله الشهيرة [٣] ما أجمل الشباب.

وفي عام ١٤٩٤، قام الملك الفرنسي شارل الثامن بغزو إيطاليا. وكان لورنتسو قد توفي في عام ١٤٩٢. وكان بييرو ابن لورنتسو، الذي لم يكن ليقارن بوالده في معالجة المخاطر الداخلية أو الخارجية، قد سلب ممتلكات كثيرين من أثرياء المواطنين قبل أن تحدث الأزمة. وعندما ظهر الفرنسيون، استسلم بييرو من دون أن يحارب. وعند عودته إلى فلورنسا، وجد أن معظم أهالي المدينة ثائرون ضده. وعند هذه اللحظة الحرجة، ظهر سافونارولا ليتصدر الموقف. وكثيرًا ما أدان رولا رفاقه الإيطاليين على رذائلهم وتنبأ بكارثة وشيكة. وعندما لاح شارل الثامن في الأفق، اكتسب سافونارولا بريقًا شديدًا، ليس فقط لأنه تنبأ بالطوفان الفرنسي، بل أيضًا لأنه أقنع شارل، كما اعتقد كثيرون، بأن يكون رحيمًا بالمدينة.

ويدأ سافونارولا، وفق تقاليد التنبؤ التي سادت فلورنسا لعدة قرون، بالقول بأن المدينة ستلعب دورًا إبداعيًّا عظيمًا في حركة

الإصلاح الديني التي تجتاح الكنيسة. وأصر أيضًا على أن الفلورنسيين لن يسعهم، إن أُعطوا طاقتهم وقدرتهم السياسية، إلا أن يعيشوا في جمهورية، معرضًا هيبته لخطر إنشاء شكل جديد من الحكومة قوامها مجلس أعلى يشارك فيه عدد كبير من المواطنين. وقد نشأت هذه المؤسسة ومعها قاعة لاجتماعاتها أُسندت زخرفتها لكل من ليوناردو وميكلانجلو. ودخلت فلورنسا في تجربة طويلة وحاسمة مع الحكم الجمهوري الذي كُتب له أن يدوم، على الرغم من أزمة عام ١٤٩٨ وسقوط سافونارولا المفاجئ، حتى عام ١٥١٢ [٤].

وفي محاولة يائسة للتوفيق بين كبار النبلاء والتجار الذين كانوا يرون أن مصالحهم مختلفة اختلافًا جذريًّا، جاء بييرو سوديريني، رئيس قصر الرياسة، ليسيطر على هذه الجمهورية. وقضى ماكيافللي - الذي تم تعيينه في لجنة القيادة العشارية لحرب عام ١٤٩٨ - مسيرته السياسية بكاملها في خدمة حكومة سوديريني. وأصبح موظفًا مدنيًّا ضليعًا، خبيرًا في إجراء المهام الحكومية وبارعًا في تفسير الرسائل الرسمية وإعدادها. وعمل ماكيافللي في مهام داخل الدولة الفلورنسية، كما عمل دبلوماسيًّا خارج البلاد. وقد ساعده تعاونه من حين إلى آخر مع فرنتشسكو فيتوري، وهو صديق حميم كريم المحتد، على التعرف إلى الحكام الأكثر نفوذًا في عصره، في إيطاليا وفي الشمال على حد سواء: قيصر بورجيا، الملك الفرنسي لويس الثاني عشر، الإمبراطور الروماني المقدس ماكسيميليان الأول. ومن خلال ما لقيه من حين إلى آخر من إذلال من جانب ممثلي القوى الكبرى، عرف ما لفلورنسا من قيمة ضئيلة في الأوضاع السياسية

الجديدة وفي النزاعات المسلحة في بداية القرن السادس عشر. وبفضل فضوله الدائم، استطاع أيضًا أن يعرف أن فلورنسا والدول الكبرى الأخرى تتسابقان من أجل أن تصبح أكثر قوة؛ فبدأ يشن نقدًا صريحًا لا هوادة فيه على الأوضاع السياسات الفلورنسية؛ نقدًا غالبًا ما كان مدعومًا بأمثلة من التاريخ الروماني تم اختيارها بدقة لإلقاء الضوء على الحاضر. وإيمانًا منه بأن جيشًا من المواطنين هو وحده الجيش الذي يمكنه أن يحارب بإخلاص حتى النهاية، قام ماكياڤللي، وهو يعد للجنة جديدة، لجنة التسعة، بإنشاء فرقة عسكرية للدفاع عن فلورنسا، ليراها وهي تسحق ذات يوم في مواجهة جنود يدمرون نظام حكم سوديريني ويعيدون آل مديتشي إلى السلطة عام ١٥١٢ (٥). ونتيجة لشكوك التآمر التي حامت حوله ضد آل مديتشي العائد إلى الحكم، تم عزل ماكياڤللي، بعد اعتقاله وتشويهه، وإبعاده عن المدينة ليقيم في مزرعته الريفية الصغيرة الواقعة على بعد أميال قليلة؛ حيث بدأ يعاني من جديد من رغبته في العودة إلى العاصمة وإلى العمل السياسي. وبعبارة أخرى، فإن حياة ماكياڤللي السياسية بدأت وانتهت بالغزو والثورة. ولا عجب في أنه كان يرى النظام السياسي باعتباره نظامًا شديد الهشاشة ويصر على أن حمايته فوق مستوى العقليات الحذرة المتمسكة بالقديم.

هذه هي الظروف التي اعتاد فيها ماكياڤللي الكتابة إلى فيتوري، رسالة بعد رسالة، متناولًا المعني السياسي للوقائع الحديثة ومصرًّا من ناحيته، كلما كان فيتوري يصر، على انعدام وضوح الرؤية عند الأمراء (٦). غير أنه كان، في الواقع، يمتلك ناصية فن قراءة أفعال الأمراء ونياتهم. وبعد أن استبد به اليأس لاستبعاده من عالم العمل

السياسي، وبدافع من الآمال التي تعلق بها في أن تعيده مهاراته السياسية إلى موقع السلطة التي فقدها، اتجه ماكيافللي إلى الثقافة الكلاسيكية والتجربة السياسية لمدينته الأم، واثقًا من أنه سيجد فيهما المنابع الفكرية التي كان يبحث عنها. وفي أكثر هذه الرسائل شهرة، قدم ماكيافللي وصفًا مستفيضًا لواقع أنه وجد نفسه مضطرًا إلى العيش أسير القيل والقال من جانب القرويين، باذلًا وقته في صيد السمك ولعب القمار، وفي محاورة جيرانه السذج والمساكين. وحاول أن يحوّل النقمة إلى نعمة بالبرهنة على أن بمقدوره أن يتجاوز هذه المحن بممارسة مهاراته كمحلل للماضي والحاضر:

في المساء، أعود إلى منزلي، وأدخل مكتبي؛ أخلع عند العتبة ملابسي العادية، المغطاة بالطين والوحل، وأرتدي الثياب الفخمة الفضفاضة؛ وبعد أن أصبح مهندمًا، ألج قصورًا منيفة لرجال أجلاء يلاقونني بكل ترحاب، وهنا أذوق طعامًا لا يشاركني فيه أحد؛ طعامًا ولدت من أجله؛ ولا أخجل هنا من الحديث إليهم؛ لا أخجل من سؤالهم عن أسباب أفعالهم؛ فيجيبون عليَّ بكل ما أُثر عنهم من إنسانية؛ ولمدة أربع ساعات لا أشعر خلالها بسأم، بل نابذًا أي بلوى، فلا أكون خائفًا من فقر ولا مرتجفًا من التفكير في الموت: أصير جزءًا لا يتجزأ منهم. وإعمالًا لما يقوله دانتي من أن المعرفة لا تكون موجودة من دون قدرة الذاكرة على حفظها، فقد قمت بتسجيل ما تعلمته من حديثهم، وألّفت كتابًا صغيرًا عن مبادئ الحكم أقلب فيه، بكل ما وسعني من عمق، الأفكار المتعلقة بهذا الموضوع، متناولًا ماهية الإمارة، وما أنواعها؟ وما طرق الحصول عليها؟ وكيف يمكن الحفاظ عليها؟ ولماذا يفقد الأمراء إماراتهم؟ (٧).

اتجه ماكيافللي إلى المنبع التقليدي للثقافة- قراءة الكلاسيكيات- ليس فقط بحثًا عما هو مختلف وغير مألوف، ولكن كشكل من أشكال التهور اليائس. لقد كان يأمل في أن يكون بوسعه بهذا العمل ليس فقط أن يوضح موقفه الشخصي، بل أن يدلل على خبرته الفائقة، وأن يفوز بذلك بمنصب في حكومة مديتشي الجديدة، منصب تتيح لمواهبه أن لا تكون عرضةً للصدأ في عزلة ريفية. ولهذا، فقد أهدى كتابه إلى جوليانو مديتشي على أمل أن تلقى أفكاره صدىً عند «أمير جديد». وبعبارة أخرى، اعتمد ماكيافللي على منابع الموروث الهيوماني ـ معرفة الكلاسيكيات والفصاحة في التعبير ـ من أجل استعادة مكانته فيكون بإمكانه أن يتصدر الحياة السياسية التي كان يتطلع إليها أكثر من أي شيء آخر.

لأول وهلة، يبدو أن الكتاب الذي ألفه ماكيافللي لاستعراض مهارته الفائقة بوصفه محللًا سياسيًا، كتاب لا يقل في تقليديته عن تلك المناهج التي اتبعها. فهناك هيومانيون كثر قبله، منذ عصر بترارك فصاعدًا، تناولوا موضوع الأمير المثالي. لقد ناقشوا، مثل ماكيافللي، الطريقة التي ينبغي اتباعها في تلقين أمير من هذا النوع الخصال الأخلاقية والثقافية التي يكون في أمس الحاجة إليها، والطريقة التي ينبغي أن يتعامل بها مع رعاياه. وكتبهم متخمة، ككتاب ماكيافللي، بمثل كلاسيكية عن السلوك الخيِّر والسلوك السيئ استقوها من كتّاب التراجم والمؤرخين القدماء. والواقع أن عناوين كتاب الأمير ـ التي كتبها ماكيافللي باللغة اللاتينية بدلًا من الإيطالية التي كتب بها المتن، واستخدمها عند مناقشة موضوعات تقليدية مثل ما إذا كان ينبغي للأمير أن يطلب شيئًا حبًا أو خوفًا من رعاياه ـ أعطت إشارات

واضحة لأي شخص واسع الإطلاع بأن ماكيافللي وقراءه سيسيران على درب سبقهم إليه كثيرون آخرون.

غير أن ماكيافللي أصر منذ البداية على جدة نهجة حتى فيما يتعلق بأكثر الأسئلة التقليدية التي طرحها. بدأت الرسائل الهيومانية المبكرة عن الأمير المثالي بمبادئ أخلاقية عامة- طبيعة الرجل، غاية الحكومة، ارتباطهما بالسعي إلى حياة فاضلة. وعلى خلاف ذلك، ادعى ماكيافللي بكل جرأة أنه سيبحث في القضايا السياسية كما هي في الواقع. فقسَّم كل الإمارات لفئتين، حديثة ووطيدة، وحدّد، من دون أي مناقشة للمعايير، ما الذي يتعين على الأمير أن يفعله في كل حالة من أجل البقاء على عرش مملكته.

كانت الرسائل المبكرة تزعم أن الأمير يتعين عليه أن يكون فاضلًا: يسعى إلى «الفضيلة» بالمعنى التقليدي للكلمة. وقد طرح كتّاب، مثل بارتولوميو بلاتينا وفرنشسكو باترتسي بوجه خاص، قوائم طويلة من الفضائل التي ينبغي على الأمير أن يرعاها والرذائل التي ينبغي عليه أن يجتنبها، وقد دعم كل منهما طرحه بحكايات مطولة مأخوذة من المصادر الكلاسيكية. وقد بيّنت معالجاتهما وقائع معاصرة: فالكتاب الهيومانيون أقروا بأن الملوك سعوا وراء الشهرة في هذا العالم، كما سعوا إلى الحياة الأبدية للعالم الآخر، وامتدحوهم على دعمهم السخي للثقافة والتعليم وليس على بخلهم الشديد، وأبدوا في بعض الأحيان عنفًا سيكولوجيًّا كبيرًا. وتحدث ماكيافللي عن الفضيلة بصورة مستمرة. لكنه استخدم كلمة «فضيلة» بمعانٍ مختلفة، من بينها معنى المقدرة اللازمة، المستقلة عن أي أمور تخص الخير أو الشر، على مواصلة فرض السيطرة على الرعايا والممالك. وعلى

ذلـك، فـإن ماكيافللي اعتاد علـى أن يقول للقـارئ: إن الخصال التي اعتبـرت تقليديًّا «فاضلـة»، بالمعنى المسـيحي أو الإقطاعي للكلمة، لـم تكـن فاضلة علـى الإطلاق حين تتوافـر في أمير. فالسـخاء، على سـبيل المثال، كان إحـدى الفضائل الأميرية الأكثر رسـوخًا. لكنه إن مُـدَّ على اسـتقامته فلابـد أن يؤدي إلـى التبديد، وإلـى التباهي، وإلى ضيـاع ثروة الأمير وظلـم رعاياه، ويؤدي في النهاية إلى أن يسـتخفوا بـه ويكرهـوه. إن الأمير الذي يفهم «الفضيلة» علـى حقيقتها- بمعنى الخصـال اللازمـة لدوام حاله وسـلطته- سـيعلي «فضيلة» السـخاء. لكـن ماكيافللي دأب على تحريف القيم التي أكدت عليها وامتدحتها الكتابات الأساسية الخاصة بالنظرية السياسية [٨].

ماكيافللي نفسـه لفت انتباه القارئ إلـى الاختلافات الجذرية بين نهجه ونهج من سـبقوه. فالآخرون، وفق مـا قاله في الفصل الخامس عشـر، تناولـوا الجمهوريـات التـي لم يكن لهـا وجود فـي أي مكان علـى وجه الأرض. لكنـه، على خلاف ذلك، يناقـش «الواقع الفعلي للأشياء»- الدول والحكام والرعايا كما هم في الواقع. وهو لن يطرح قواعد للسلوك الخيري بالمعني المسيحي على سبيل المثال. فقد أكد أكثـر من مـرة على أن الأمير المسـيحي حقًّا، الذي يفـي بالوعد حين لا يفـي به الأمـراء الآخرون، أو يسـعى وراء حب رعايـاه بدلًا من أن يجعلهـم يخافونه، لابـد أن يفقد موقعه. وقد أكد شيشـرون في مقال لـه بعنوان «عن الالتزامات»، وهو المقال الذي يستشـهد به ويمتدحه الهيومانيـون باسـتمرار، على أن الإنسـان الفاضل لابـد أن يصل إلى غاياتـه بالحـوار والإقنـاع وليـس بالقـوة أو المكـر؛ تلك الأسـاليب الخليقـة بالحيوانـات- الأسـد والثعلـب علـى التوالـي. ماكيافللي، علـى خلاف ذلك، يرى ضرورة أن يتصرف الأمير أحيانًا كأسـد قويّ

وحاسم، وكثعلب ماكر ومراوغ في أحيان أخرى. وهو، بذلك، أكد اقتناعه بأن الأمير لا يسعه أن يتقيد بدواعي المثل الأخلاقية المعتادة إن أراد أن يؤدي دوره أداءً سليمًا [٩]. وباختصار، واجه ماكيافللي قارئه منذ البداية باعتقاده بأن الجهود المخلصة لامتلاك ناصية المعتقدات الأخلاقية التقليدية وتطبيقها لن تؤدي إلى ظهور حاكم مطاع. فالأمور السياسية لابد أن تكون لها أحكامها الخاصة.

وكما أوضح فيليكس جيلبيرت [١٠]، فقد أدخل ماكيافللي هذه الأفكار الجذرية الجديدة إلى النظرية السياسية لحد كبير، وذلك بمجرد نقل التجربة الفلورنسية المتراكمة في الشئون السياسية من مجال المناقشات الحكومية للسياسة إلى مجال المناقشة العامة للفكر السياسي. لكن الحكومة الفلورنسية كانت قد بدأت منذ فترة طويلة تدعو معظم المواطنين من أصحاب النفوذ إلى حضور الاجتماعات كلما واجهت الدولة أزمة كبرى، وكان المشاركون في هذه الاجتماعات يستشهدون مثلهم مثل ماكيافللي نفسه، بالسوابق الكلاسيكية والحديثة بصورة منتظمة وعلى أساس من الوقائع. وحاولوا أن يصوغوا قواعد قد تساعدهم على فهم التغيرات على النطاق السياسي الواسع، مثل القوى الكبرى التي شنت الحروب على شبه الجزيرة الإيطالية، وتساعدهم أيضًا على فهم الهبّات التي تحدث في عالمهم الفلورنسي، كلما أوجعت الثورات المتواصلة مدينتهم الحبيبة. ووضعوا أطرًا لهذه القواعد بعبارات لها ما لصيغ ماكيافللي من حدة ومضاء. ولعل الفلورنسيين كانوا يقولون حين يتهددهم خطر قوة أجنبية: «الكلاب التي تنبح لا تعض». وبوجه عام، فإن النبلاء الفلورنسيين عرفوا أن الخطوات السياسية في نجاحهم لم تعتمد على عون سماويّ، بل على مدى مهارة كل شخص وعلى

الطـرق التي اتبعها في حسـاب الاحتمالات. وفي عـام ١٤٩٦، حين كانت فلورنسـا معرضة للخطر نتيجة لاتباعها سياسـة الولاء لفرنسا، لاحظ أحد المواطنين البارزين أن فلورنسـا «في وسـعها أن تقاوم إما بالقـوة وإمـا بالعقل، ولكـن لا يبدو أن في مسـتطاعنا أن نقاوم إيطاليا كلها اعتمادًا على القوة. وعلينا أن نختار البديل: «العقل»». كان بوسع كتـاب الأميـر أن يصـل منـذ عهد بعيـد إلى أرفـف كتب أمـراء عصر النهضـة الذين لا بـد أن يكونوا قـد تصفحوا صفحاته باحثين بشـغف شـديد عن أسـرار العمل السياسـي الفعال؛ فالواقع أن نبلاء فلورنسا كانوا يناقشـون الأمور السياسـية على أساس من الواقع مدركين تمامًا أن المصالح المختلفة للدول والأفراد، وليس ما نوهوا إليه من أفكار، هـي التي أدت إلـى معاركهم. ومنذ تسـعينيات القرن الخامس عشـر فصاعـدًا، فإن خبـرة التعامل مع حكام متهورين، مثـل قيصر بورجيا، ومـع جحافل الجيوش الفرنسـية، جعلت الفلورنسـيين يدركون أكثر فأكثر أن القوة قد تكون هي الحاكمة في شئون البشر. وقد كان النبلاء الأسـبق يثنون على سياسـة الإبطاء والتهدئة ويعملـون على التوصل إلى تسـوية. ومنـذ تأليفه كتـاب الأميـر، كان ماكيافللـي مجرد واحد فقط بين فلورنسـيين عديديـن من «أنبياء القـوة» [١١]. وبعبارة أخرى، فإن الأفكار والصور التي استخدمها ماكيافللي لوصف الأمير الناجح جاءت كلها تقريبًا من اللغة السياسية للنخبة الفلورنسية.

على سـبيل المثال، ليس هناك فصل من فصول الأمير أكثر شـهرة مـن ذلك الفصـل الذي يحـاول فيه ماكيافللـي أن يحدد نطـاق حرية البشـر فـي القيام بعمل. وفي هذا الفصل، وفـي مكان آخر أيضًا، يرى ماكيافللي أن الثروة كانت لها دائمًا سلطات قوية على الإنسان. فهي، من حين لآخر، تكتسـح، مثل نهر آرنو، كل شيء أمامها، وتدمر ـ كما

دمر الغزو الفرنسي ـ المؤسسات كافة التي استطاع الناس اختراعها لحماية أنفسهم وحفظ النظام. لكن استعدادات البشر في مواجهة القوة الهائلة للثروة في هذا السياق - مثل الهندسة الهيدروليكية - ليس في وسعها إلا الحد منها وشق قنوات لتقليل أضرارها وليس تفاديها تمامًا. وفي بعض الأحيان، فإن الثروة، مثل فاتنة متقلبة المزاج، تبدل أوضاع الملعب تمامًا، فتعمل على الإبطاء في التكتيك السليم، كما لو أن المرء، بحكم شخصيته، يتعين عليه، في هذا الوقت المحدد، أن يواصل اندفاعه بقوة ضد الخصوم كافة، وأن يدمر نفسه بذلك العمل. وبوجه عام، فقد أكد ماكيافللي بشدة على أن الجريء المّيت القلب أنجح من القُلَّبيّ الضعيف الإرادة. وكتب يقول مستخدمًا العبارة التي غالبًا ما كانت رائجة في زمانه ومازالت ذائعة إلى الآن: الثروة امرأة في غالب أحوالها. ولذلك فهي تفضل من لديهم الجرأة الكافية لأخذها بعنف.

نصيحة ماكيافللي الخاصة بطريقة التعامل مع الثروة من عندياته. لكنه، على مستوى اهتمامه العميق بقدرة الأوضاع العامة على صياغة الأحداث، وإحساسه بهشاشة القادة البشر وخططهم، يعتمد على المنابع الثقافية للطبقة الفلورنسية الحاكمة. لقد عرف أن النبلاء الذين لا تستند شهرتهم إلى مولدهم العريق ولا إلى شجاعتهم العسكرية، بل على البضائع والاستثمارات، يمكن أن يفقدوا كل شيء بين عشية وضحاها. وأبدى بعضهم ـ مثل الراعي العمراني العظيم جيوفاني روتشيلاي، أحد أعظم رعاة العمران ـ اهتمامًا يكاد يكون مفرطًا بهذا الأمر. واتخذ روتشيلاي سفينة منتفخة الأشرعة كشعار له، إشارة إلى أن الثروة، التي قد تعني أيضًا ريحًا قوية، تدفع السفينة من ملكيته إلى ملكية شخص آخر. ووضع شعاره هذا على المشاريع

العمرانيـة العظميـة التي كان يقيمهـا هنا وهناك، بما فـي ذلك واجهة كنيسة إستا ماريا نوفيللا، بمنظره ذي الأشرعة الممتلئة بالرياح. وأقام روتشيللاي تمثالًا مماثلًا للثروة ـ أنثى عارية يستحيل كبح جماحها ـ على قاعدة أنيقة في فناء قصره الفلورنسـي. وقد استشـهد كتّاب مثل ليـون باتيستا ألبيرتي على الـدوام بقدرة الثروة علـى تدمير العائلات الكبيـرة وتعزيزها. وفي مجال بيان أن النجاح والفشـل شيئان لا يتم اكتسابهما بحسن السلوك، بل شيئان يتم انتزاعهما بالقوة من بين يدي عالـم لا يتسـم بالعاطفيـة، استخدم ماكياڤللي مجموعة راسـخة من المجاز اللغوي والصور البيانية.

ومما يثير العجب أن شـخصًا يركز دائمًا على مقدرته على إعطاء تفسير صحيح وعميق للأوضاع السياسية، مثل ماكياڤللي، يكتب، من حين لآخر، بما يوحي أنه قد استسلم لنوع آخر من الفكر مباين للفكر السياسي الفلورنسي. لكن كلًا من فيتوري، الذي تعاون معه ماكياڤللي لأقصى حدود التعاون في الفترة التي مهدت السبيل إلى تأليف كتاب الأمير، وفرانتشسـكو جويتشـيارديني، وهو صديق حميـم آخر وناقد صـارم لماكياڤللـي، يؤكـدان أن صديقهمـا كان بارعًا إلى حـدٍّ كبير. فالنيات السياسـية غالبًا مـا كانت غامضة. وغالبًا مـا كانت للأحداث السياسية نتائج لا يمكن التكهن بها. كما أن معظم الأوضاع- كما ذكر جويتشيارديني في كتابه الشـهير «ذكريات»- كانـت متباينة تمامًا في طبيعتها لدرجة كان من المسـتحيل معها الخروج بأي استنتاج واضح بشـأن العوامل العامة التي أثرت فيها. فالعوامل السياسـية، باختصار، لـم يكن ممكنًا التنبؤ بها أو السـيطرة عليها، على الأقل ليس بالبسـاطة المدمرة التي بشّر بها مؤلف الأمير.

وعلى الرغم من ثقته الكاملة بنفسه بصفته مستشارًا، فإن ماكيافللي لا يختلف اختلافًا كاملًا مع هذين الناقدين. فهو يسلم بأن الناس لهم سمات ثابتة على الدوام: شجاع أو جبان، مقدام أو رعديد، فالأوضاع قد يصلح لعلاجها أسلوب معين من العمل أحيانًا، وقد يصلح أسلوب آخر في أحيان أخرى. لكن لا أحد يستطيع دائمًا، أو أحيانًا، أن يتزيّا بزيٍّ واحد يصلح لأزمنة تتغير وتتبدل. إلى هذا الحد، كان رجال السياسة جميعًا محكومًا عليهم بالفشل أحيانًا، حتى لو كانت السياسات الجريئة هي المفضلة بصفة عامة. ولم يكن ماكيافللي فلورنسيًّا أكثر من أي مكان آخر، إلا حين أصابه اليأس في أن يجد حكامًا يمكنهم أن يضعوا ملاحظاته السياسية موضع التنفيذ.

على أن كتاب ماكيافللي، وفكره السياسي تجاوزا أيضًا، تجاوزًا تامًّا، تقاليد اللغة السياسية التي تعلمها جيدًا. وقد استمر هذا التجاوز ليشكل تحديًا لجميع من تولوا ترجمة سيرته وفكره. فكما رأينا، كانت فلورنسا، في المقام الأول، جمهورية منذ عهد بعيد؛ وقد خدم ماكيافللي نفسه الجمهورية بكل إخلاص، بل حتى في الرسالة الاستهلالية لكتاب الأمير، ذكر ماكيافللي أنه ناقش الحكومات الجمهورية في كتاب آخر- وهي ملاحظة تعتبر دائمًا إشارة إلى كتابه «تعليقات حول ليفي» الذي حلل فيه تجربة روما القديمة لكي يستنبط أي المؤسسات بوسعها أن تحافظ على الجمهورية. أما في كتاب الأمير فقد شرح ماكيافللي كيف يمكن لحاكم مطلق أن يتولى أو يحافظ على الحكم في دولة كانت جمهورية من قبل. في كتاب «التعليقات»ـ وهو عمل يستعرض فيه محاضرات كان قد ألقاها أمام مجموعة من النبلاء والمثقفين في متنزَّه حدائق قصر آل روتشيللاي

بعد سنوات قليلة من سقوط الجمهورية - حاول ماكياڤللي أن يشرح كيف نجح الرومان في إنشاء دولة لها ملامح شعبية قوية؛ دولة دافعت عن وجودها لقرون طويلة. وبرغم أن تحليل ماكياڤللي للسياسة الجمهورية كان واقعيًّا وعمليًّا، كما فعل في كتابه عن الأمراء، فإن كتابه الأخير ينم عن تفضيله الحاسم للحكومة الشعبية، وعن إيمانه التام بإخلاص الشعب وطهره، وهو ما يبدو أنه لا يتفق مع تحليله الصارم حول جمهور متردد يسهل خداعه، وهو الجمهور الذي يشكل الدعامة الداعمة لوصاياه الخاصة بسلوك رائع يليق بالأمراء. وقد حاول عديد من الباحثين، بدرجات متباينة من التوفيق، أن يوفقوا بين الكتابين، وأن يبرهنوا على أن أحدهما هو فقط الذي يعبر عن رأيه الحقيقي. لكن جميع مثل هذه المحاولات تظل، على أي حال، غير حاسمة. الواقع أن طبيعة الأهداف الذاتية عند ماكياڤللي - والطرق التي ابتعها هو نفسه في مجال المقارنة والموازنة بين الكتابين - تظل مثيرة للجدل. ومن أراد أن يدرس التطور الفكري عند ماكياڤللي في أبعاده المختلفة - والطرق التي اتبعها ماكياڤللي في مجال المقارنة والموازنة بين الكتابين - ينبغي عليه، أولًا وقبل كل شيء، أن يوجد تفسيرًا لمقصد هذا الخادم المخلص للجمهورية من تمجيده للاستبداد (١٢).

في تضاعيف كتاب الأمير، يضع ماكياڤللي على عاتق قرائه تحديات تتعلق بمشاكل التأويل. فقد أكد، على النحو الذي يدركه جميع قراء كتابه من فورهم، أن الأمير ينبغي عليه أن يستخدم ما يعن له من الأساليب التكتيكية اللازمة لضمان سيطرته على الدولة - حتى الوحشية منها. فأساليب الإرهاب؛ واستخدام الأتباع العتاة الذين يمكن التخلص منهم هم أنفسهم بكل وحشية بمجرد قيامهم

بتنفيذ المهام الإجرامية التي تم تكليفهم بها؛ وحتى ارتكاب جرائم القتل الجماعي ضد المعارضين - كل هذه الوسائل التي تمتلئ بها صفحات كتاب الأمير غالبًا ما يتم تصويرها باطمئنان ظاهر. بل جعل ماكياڤللي من أحد أشد الحكام العلمانيين المرعبين في زمنه - قيصر بورجيا - صنفًا من أصناف الأبطال، وذلك ليس بسبب سلوكه الإداري الفاضل ولكن لمزجه الألمَعيّ الرائع بين الأساليب التكتيكية؛ الأمر الذي جعل منه - تقريبًا - الحاكم المطلق لوسط إيطاليا. ومن حين لآخر، يبدو أن ماكياڤللي يتباهى بالوحشية التي يصورها. لكن بعض القراء - لاحظوا أن ماكياڤللي، بوصفه مبعوثًا خاصًا فوق العادة لقيصر بورجيا، كان يوجه له في الحياة الحقيقية نقدًا شديد اللهجة - يرون، رغبةً منهم في تجنيبه مغبة اللاأخلاقية السياسية، أنه لم يكن يقصد على الأرجح تقديم تفسير جدِّي بقدر ما كان يقصد طرح رؤية ساخرة شديدة المرارة للحياة السياسية المعاصرة له؛ تلك الحياة التي يمكن لقرائه أن يحلوا شفرتها. وقد تجاوب كثيرون جدًّا، من عصر ماكياڤللي إلى الآن، بطريقة مغايرة تمامًا، فتعاملوا معه باعتباره معلمًا عتيدًا للاأخلاقية: باعتباره شخصًا يؤرخ كتابًا لنهاية الشكل القديم للحياة السياسية والفكر السياسي ولميلاد الحداثة بكل ما لمعايبها من سمات مميزة. كما أن ماكياڤللي نفسه، في أحوال مزاجية أخرى، أقر بأن الحاكم ليس بوسعه أن يذبح مواطنيه من دون موجب حتى إن بدا ذلك العمل جوهريًّا. وكتب يقول: إن أجاتوكليس طاغية سرقوزة ما كان ليطلق عليه «فاضل» حتى إذا كانت سياساته ناجحة.

وكما أوضحت فكتوريا كان[١٣]، قد أكد ماكياڤللي بهذه الصورة على تعقد الحياة السياسية والفكر السياسي وسيولتهما، وحاول أن يعلم قراءه لا ينبغي عليهم ألّا يتطلعوا إلى أحكام إلزامية، بل يتعين

عليهم أن يقدِّروا مواضع خطاهم بكل دقة كلما حاولوا اتخاذ موقف سياسي مختلف، وأرادوا تحديد متطلباته. وبتأكيده على أنه ما من شيء واحد وحيد يمكن أن نتحدث عنه باعتباره «الفضيلة» ونقتفي أثره في كل موقف، أصبح ماكياڤللي المعلِّم السياسي لأوروبا. وقد تعلمت منه أجيال من القراء في القصور والجامعات كيف يكونون دقيقين عند اتخاذ القرارات السياسية وفق واقعية جديدة صلبة، وكيف يدركون تمامًا أن أي حاكم يأمل في البقاء حاكمًا ليس بوسعه تفادي بعض أشكال من الخداع.

وقد أعطى ماكياڤللي اسمه لـ «ماكيافلل» ؛ ذلك المتآمر الذي اعتاد التلاعب بالآخرين في تراجيديات العصر اليعقوبياني، ولكنه أتاح أيضًا مبادئ «عقل الدولة» التي أصبحت أساس التعليم السياسي في أوربا الحديثة (١٤).

ولقد كره ماكياڤللي «الأنبياء العزَّل» من أمثال سافونارولا، مع أنه هو نفسه لم يكن مسلحًا إلا بقلم حين أصبح نبي المفاهيم السياسية الجديدة. وأعطى شكلًا أدبيًا ثابتًا لا يغيب عن البال لرؤيته اللاأخلاقية للسياسة؛ تلك الرؤية الخالية من الرحمة التي غرسها منذ عهد بعيد أعضاء النخبة الفلورنسية. لكنه، في الوقت ذاته، أماط اللثام عن عيوب الرؤية المتوارثة، وكذلك عن عيوب الرؤية الشديدة المثالية التي سادت الأدب السياسي قبل عصره. ولا عجب في أن هذه الصورة التي رسمها للأمير، مثلها مثل صورة سافونارولا، مازالت تحتفظ بقدرتها على إثارة الدهشة وإشاعة الخوف وإعطاء الدروس.

هوامش المقدمة

١ - انظر: Donald Weinstein, Savonarola and Florence: Prophecy and Patriotism in the Renaissance (Princeton, 1970)

٢ - انظر، على سبيل المثال: Hans Baron, In Search of Florentine Civic Humanism (Princeton, 1988)

٣ - للمزيد عن هذه الأشياء كما شوهدت في فلورنسا، انظر: Mark Phillips, The Memoir of Marco Parenti: A Life in Medici Florence (Princeton, 1987)

٤ - انظر: Weinstein.

٥ - انظر سيرة ماكيافللي في: Robert Black, "Machiavelli, Servant of the Florentine Republic", Machiavelli and Republicanism, ed. G. Bock, Q. Skinner and M. Viroli (Cambridge, 1990),72-8

٦ - انظر تحليل جون ناجمي John Najemy الدقيق Between Friends: Discourses of Power Desire في كتاب the Machiavelli-Vettori Letters 513-of 11515 .(Princeton, 1993)

٧ - The Portable Machiavelli, ed. and tr. P. Bondanella and M. Musa (Penguin, 1979), 69

٨ - Felix Gilbert, "The Humanist Concept of the Prince and The Prince of Machiavelli", History: Choice and Commitment (Cambridge, Mass., and London, 1977), 91-II4

٩ -. Marcia Colish, "Cicero's De officiis and Machiavelli's Prince», Sixteenth Century Journal 9 (1978) 91-4.

١٠- F. Gilbert, Machiavelli and Guicciardini: Politics and History in Sixteenth-Century Florence (Princeton, 1965), part 1

١١ - المرجع السابق.

١٢ - مازال أفضل مدخل إلى هذا الموضوع العريض هو كتاب كونتين إسكينّر:

Quentin Skinner, Foundations of Modern Political Thought (Cambridge, 1978),vol.1

١٣ - Victoria Kahn, Machiavellian Rhetoric: From the CounterReformation to Milton (Princeton, 1994).

١٤- المرجع السابق.

نـص الأمـير

خطاب من ماكيا للي إلى لورنتسو الأعظم

ابن بيير ودي مديتشي

اعتاد الذين يخطبون ود أمير من الأمراء أن يهدوه أشياء يعدونها من أنفس النفائس، أو يعلمون أنها تطيب له بالذات. وعلى ذلك يتلقى الأمراء غالبًا الخيل، والأسلحة، واللباس الموشى بالذهب، والجواهر، وما شاكل ذلك من الحلي التي تليق بسموهم. وحين رغبت في أن أقدم إلى سموكم دليلًا متواضعًا على ولائي، لم أستطع أن أجد شيئًا أعتز به، أو أعتبره ذا قيمة، من بين ما تملك يداي، مثل تلك المعرفة بأعمال عظماء الرجال التي اكتسبتها خلال خبرتي الطويلة للأمور المعاصرة، ودراستي المتواصلة للعالم القديم؛ لقد تأملت فيها مليًّا، ومحصتها طويلًا. وهأنذا أقدم لسموكم الآن صفوتها في هذا الكتيب.

ومع أني أعد هذا المؤلف غير جدير بقبول سموكم، إلا أن ثقتي في رقة شمائلكم تجعلني على يقين من قبولكم له قبولًا حسنًا حين تعلمون أنه ليس في طاقتي أن أقدم لكم هدية أعظم من أن أتيح لكم أن تفهموا في وقت قصير جميع ما درست في سنين طويلة، وأنا أعاني الحرمان والشدائد. ولم أحسن كتابي بعبارات طنانة،

أو بألفـاظ رنانـة، أو بـأي زخرف مما يسـعى به كثير مـن الكتّاب إلى تحسـين مؤلفاتهم؛ لأني لا أرغب في شـرف له سوى ما تستحق جدة مادتـه، وجديـة موضوعـه. وقد يبـدو مؤلّفي غرورًا مـن جانب رجل بسـيط خامل يحاول أن يناقش حكم الأمراء ويوجهه؛ ولكني أظن أن مـن الواجب أن يكـون المرء أميـرًا لكي يعرف طبيعة الشـعب معرفة كاملة، وأن يكون واحدًا من الشعب لكي يعلم طبيعة الأمراء. والحال تمامًا كحال الفنانين الذين يصورون المناظر الطبيعية يقفون في أسفل الـوادي ليتأملوا طبيعة الجبال والنجاد، ولكي يتأملوا السـهول يقفون عاليًا فوق الجبال.

ولذا أجيز لنفسـي أن تعتقد أن سـموكم سـوف يتناول هذه الهدية البسـيطة بنفس الروح التي أبعث بها إليكم. وإذا قرأ سـموكم الكتاب بإمعـان، ونظـر إليـه بعيـن الاعتبار فسـوف تـرون رغبتي الحـارة في أن تنالـوا تلـك العظمـة الممكنـة التي يعدكـم بها حظكـم وصفاتكم الأخـرى. وإذا نظر سـموكم مـن عليائه إلـى أماكن أخـرى متواضعة فإنكم تلمسون كم أعاني من الحظ القاسي دون استحقاق.

الفصل الأول

في أنواع الحكم المختلفة ووسائل إقامتها

إن جميع الدول والسيادات التي خضع لها البشر، وما زال، إما جمهورية وإما ملكية. والملكيات، إما وراثية فيها حكام من أسرة بعينها منذ سنين طويلة، وإما ملكية قامت حديثًا. وهذه إما جديدة تمامًا كمملكة ميلانو في عهد فرنتشسكوسفورتسا Francesco Sforza وإما كأجزاء جديدة تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة ويلحقها بها، كمملكة نابولي في عهد ملك إسبانيا. والممتلكات التي اكتسبت بهذه الطريقة إما أنها قد ألغت حكم أمير آخر فيما سبق، وإما كانت ولايات حرة، ويلحقها الأمير بممتلكاته، إما بقوة أسلحته هو، وإما بقوة أسلحة غيره، وإما يسقطها في يده حسن الطالع، وإما القوة.

الفصل الثاني

في الإمارات الوراثية

لما كنت قد عالجت الجمهوريات معالجة تامة في موضع آخر، فلن أتحدث عنها هنا، ولن أعالج الآن سوى الأنواع المتباينة التي سبق أن تحدثت فيها كيف يمكن أن تحكم وأن تصان. وعلى ذلك أقول: إن الصعوبة في المحافظة على الدول الوراثية التي ألفت حكم أسرة حاكمة أقل بكثير منها في حكم الملكيات الجديدة، لأنه يكفي ألا نتجاوز أوضاع السلف، وأن نتهيأ للطوارئ المقبلة ومثل هذا الأمير، ولو فرض أن كانت قدرته عادية، فسوف يستطيع على الدوام أن يصون ملكه بهذه الطريقة، إلا إذا جردته منه قوة خارقة مفرطة. وحتى لو حدث هذا الأمر، ففي مقدوره أن يستعيده فيما بعد حين يقع أقل طارئ سيئ للمحتل الجديد.

ولدينا مثال لذلك في إيطاليا هو دوق فرارا الذي استطاع أن يصد غارات البنادقة عام ١٤٨٤، والبابا يوليوس عام ١٥١٠، لا لسبب سوى قدم أسرته في هذه الدوقية؛ لأن الأمير الشرعي أقل حاجة وسببًا من غيره لإلحاق الأذى برعيته. ومن هنا يجب أن يكون محبوبًا أكثر منه. ومنطقيًّا لابد أن يميلوا إليه بطبيعة الحال إذا لم تجعله رذائل

خارقـة بغيضًا، وسـوف تضيـع ذكريات ما اسـتحدث وعللهـا بتقادم سـني حكمه، حيـث إن التغيير مرة يترك دائمًـا الطريق ممهدًا لإدخال تغيير آخر.

الفصل الثالث

في الإمارات المختلطة

ولكـن الصعوبات توجد حقيقـة في الملكية الجديـدة. فأولًا، إذا لـم تكـن جديدة تمامًـا، ولكنها، كما كانـت جزءًا من دولـة مختلطة، فـإن اضطراباتهـا تنبجـس أولًا مـن صعوبـة طبيعية توجد فـي جميع الممتلـكات الجديـدة؛ لأن البشـر يغيرون برغبتهم الحـكام؛ أملًا في تحسـين أحوالهـم. وهـذا الاعتقـاد يجعلهم يشـهرون السـلاح ضد حكامهـم الذين خدعوا فيهم؛ لأن التجربة تثبـت فيما بعد أن حالتهم قد انتقلت من السيئ إلى الأسوأ. وهذا نتيجة لعلة أخرى طبيعية جدًّا، وهـي الضرر الذي لابد منـه يقع من جنود الأمير الـذي تولى عليهم، ومن عدد لا حصر له من الأضرار الأخرى التي نتجت عن احتلاله.

وعلى ذلك تجد أن جميع هؤلاء الذين أسأت إليهم باحتلال تلك الولايـة أعداء لك، ولا تسـتطيع أن تحافظ علـى صداقة أولئك الذين قدموا إليك يد المسـاعدة في الحصول عليها؛ لأنك لن تقدر على أن تحقـق مـا يتوقعونه منـك، أو أن تتخذ معهم إجراءات شـديدة؛ لأنك مدين لهم بالمعروف. ولذلك، ومهما كانت جيوشك قوية، فأنت في حاجة إلى أن يناصرك السـكان حتى تمتلك الولاية. ولهذه الأسـباب فقـد لويس الثاني عشـر ملك فرنسـا ميلانو في الحـال بالرغم من أنه

استطاع احتلالها دون عناء؛ كانت قوات لدوڤيكو Ludovico وحدها كافية لأن تأخدها منه في المرة الأولى؛ لأن أهلها الذين فتحوا أبوابهم لملك فرنسا راغبين ضاقوا ذرعًا بحكم أميرهم الجديد، حين وجدوا أملهم العزيز وقد خاب، ولم ينالوا الفوائد التي تطلعوا إليها.

حقًا، إن الأقاليم التي تشق عصا الطاعة يصعب ضياعها مرة أخرى بعد استعادتها من جديد؛ لأن الحاكم يكون حينئذ أشد رغبة في تأمين مركزه بمعاقبة المعتدين، وكشف الشكوك، وتقوية نقط ضعفه. ولذا فعلى الرغم من مجرد ظهور شخص مثل دوق لدوڤيكو على الحدود كان هذا كافيًا ليتسبب في ضياع ميلانو من فرنسا في المرة الأولى. ولم يكن فقدان سيطرتها عليها في المرة الثانية ممكنًا إلا حينما كانوا يقفون كافة ضدها، وبعد أن هزمت جيوشها وطردت من إيطاليا. وكان هذا نتيجة للعلل التي سبق أن ذكرناها، ومع ذلك أخذت منها في كلتا المرتين. ولقد سبق أن ناقشنا الأسباب العامة لضياعها منها في المرة الأولى منذ برهة وجيزة، ولا يبقى الآن للنظر سوى معرفة أسباب الهزيمة الثانية، وما الوسائل التي كان يمكن بها لفرنسا أن تتجنب تلك الهزيمة، ولم يتخذها ملك فرنسا، وكان يمكن لحاكم آخر أن يتذرع بها في هذا الموقف. وعلى ذلك لنلاحظ أن تلك الولايات التي كانت عند الضم متحدة مع ولاية لها وجود سابق إما أنها تشترك معها في الجنسية واللغة نفسيهما، وإما لا تشترك. وفي الحالة الأولى يكون الاحتفاظ بها يسيرًا جدًا، وبخاصة إذا لم تكن قد ألفت الحرية. ولكي نملكها بسلام يكفي أن تمحي من الوجود أسرة الحكام الذين سبق أن حكموها؛ لأن غير هؤلاء يستقرون بهدوء في ظل حكامهم الجدد ما لم تضطرب حالتهم القديمة،

ولـم يكن ثمـة اختلاف في العادات، كما شـوهد في حالـة بورغانديا Burgundy، وبريتانيـا Brittany، وجاسـكونيا Gascony ونورمانديـا Normandy، التـي اتحـدت مع فرنسـا زمنًـا طويلًا جدًّا. ومـع أنه قد يكون ثمة اختلاف بسـيط في اللغة، إلا أن عادات الشـعب متشـابهة، ويمكن أن تسـير معًا سـيرًا حسـنًا. ويجب على كل مـن يحصل على ملـك مثل هذه الأقاليم،ويريد أن يحتفظ به، ألا ينسـى أمرين: الأول، أن يعفـى الزمـن علـى دم حكامهـم القدامـى. والآخـر، ألا يقوم بأي تغييـر في قوانينهـم أو ضرائبهم، وبهذه الطريقة سـوف تتحد الأملاك الجديـدة مـع القديمـة وتكـون ولايـة واحدة فـي وقت قصيـر جدًّا.

ولكـن حين نسـتولي على ممتلكات فـي منطقة تختلـف معنا في اللغـة، والقوانيـن، والعادات، فـإن الصعوبات التي لابـد من التغلب عليهـا عظيمـة، ونحن في حاجة إلى حسـن طالع كبيـر ويقظة عظيمة لكي نحتفظ بها، وإقامة الحاكم الجديد فيها من آكد الوسائل وأحسنها لذلك. وهذه الوسيلة قد تجعل الامتلاك أكثر سلامة ودوامًا؛ وهذا ما فعل الأتراك في بلاد الإغريق. فعلى الرغم من جميع الوسائل الأخرى التي اتخذها السلطان للاحتفاظ بتلك الولاية لم يصبح ذلك ممكنًا له إلا حينما ذهب وعاش هناك. فحين يكون الأمير في المكان المقصود يسـتطيع أن يرى القلاقل وهي تظهر، ويمكن علاجها بسـرعة. ولكن حين يعيش بعيدًا يسمع عنها فحسب عندما لا يعود لها علاج. وفضلًا عـن ذلك، فإن رجاله الرسـميين لا ينهبون البـلاد؛ لأن الرعايا يمكن أن يرضيهـم اتصالهم المباشـر بأميرهم؛ وحين يرغبـون في الولاء له يكون لديهم سبب أقوى لمحبته. وإذا كان لهم ميل آخر فسوف يكون لديهم علة كبرى لكي يهابوه. كما أن إقامته سـتقلل من أن تميل دولة

خارجية إلى غزو تلك الولاية، حتى إنه كلما طالت إقامته فيها صعب جدًّا تجريده منها.

والعلاج الآخر، وأحسن العلاجين، هو إقامة مستعمرات في مكان أو مكانين من تلك الأمكنة التي هي مفاتيح للبلاد؛ لأنه لابد من أحد أمرين، إما أن نفعل ذلك، وإما أن نحتفظ بقوة مسلحة كبيرة. إن المستعمرات سوف تكلف الأمير قليلًا؛ فهو يستطيع من جانبه، بتكاليف بسيطة، أو من دونها، أن يرسل ويحتفظ بالمستعمرات. وهو بهذا لا يضر سوى أولئك الذين قد أخذت منهم أراضيهم ومنازلهم وأعطيت للسكان الجدد، وهؤلاء لا يكونون سوى نسبة ضئيلة من الولاية؛ والذين قد أصابهم الضرر، لا يمكن أن ينالوه بأذى،فهم يظلون فقراء مشتتين، وغير هؤلاء، من السهل تهدئتهم جميعًا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن من لم يصبهم الضرر يخافون أن يصيبوه بأذى خشية أن يعاملوا معاملة أولئك الذين قد جردوا من أملاكهم. وقصارى القول، لا تكلف هذه المستعمرات شيئًا، وهي أكثر ولاء، وأقل ضررًا؛ والفئات التي قد نالها الضرر عاجزة عن أن تقوم بما يؤذيك، فهم فقراء مشتتون كما أوضحت. لأنه يجب أن نلاحظ أن الرجال يجب أن يعاملوا معاملة رحبة، أو أن يمحقوا محقًا تامًّا ؛ فهم يثأرون لأنفسهم للإهانات التافهة، ولكنهم لا يستطيعون الانتقام للكبير منها. ولذا فإن إهانتنا لإنسان لابد أن تكون إهانة تغنينا عن أن نخشى معها انتقامه. ولكن إذا احتفظ الحاكم بحامية بدلًا من سكان المستعمرات، فسوف ينفق على الحامية أكثر من ذلك كثيرًا، ويستهلك جميع موارد هذه الولاية في حراستها حتى تنجم الخسارة عن الاستيلاء عليها. ويضاف إلى ذلك، أن ضرر الحامية كبير؛ لأن كل فرد في تلك الولاية تؤذيه عسكرة الجيش فيها. ولما كانت هذه مضايقة للجميع، فإن كل فرد في الولاية يصبح عدوًّا، وهؤلاء أعداء

قـادرون علـى الإضرار بك، فهـم لا يبرحون منازلهـم الخاصة، على الرغم من أنهم مغلوبون. ولهذه الأسـباب تكون المسـتعمرات مفيدة من جميع النواحي على قدر ما تكون الحامية عديمة الفائدة.

وزيادة على ذلك، ينبغي لحاكم إقليم أجنبي، كما قررت أن يتزعم جيرانه الضعفاء ويدافع عنهم، وأن يعمل على إضعاف جيرانه الأقوياء، وأن يحذر من أن يغزوهم أجنبي أقوى منه؛ وسـوف يكون الأمر دائمًا أن غير الراضين سيدعونه للتدخل إما بسبب الطمع وإما الخوف، كما رأينا حين اسـتدعى الإيتوليون AEtolians الرومان إلى بلاد الإغريق. إن أي ولاية دخلها الرومان كان بناء على طلب السكان. والقاعدة هي أن الأجنبـي القوي حين يدخـل إقليمًا يصبح جميع الضعفاء أتباعًا له، وهـم مدفوعون في ذلك بالحقد علـى أولئك الذين يحكمونهم، حتى إنـه لا يتكبـد أي عناء لكي يضم إلى جانبه هـذه القوى الصغيرة؛ لأنها جميعًـا تنضم برغبتها إلى قوات الولاية التي قامت بالاسـتيلاء. وليس عليه سـوى أن يحترس من أن ينالوا سلطانًا مفرطًا وقوة. وبمناصرتهم وبقواته يستطيع أن يسحق الأقوياء منهم، ويظل هو فيصل تلك المنطقة فـي جميـع الأمور. إن من لا يحسـن الحكـم بهذه الطريقة سـرعان ما يفقد ما قد اسـتولى عليه، وسـوف يلاقي صعوبة وعناء لاحد لهما في أثناء السيطرة عليه.

لقـد نهـج الرومـان دائمًـا على هذه السياسـة فـي الولايـات التي استولوا عليها. أنشأوا المستعمرات، وحافظوا على علاقات الصداقة مـع الـدول الصغيـرة مـن دون أن يزيدوا قوتهـا، وأضعفـوا الأقوياء، ولـم يتيحـوا للحكام الأجانـب أن يحصلوا على نفوذ فيهم. وسـوف أضـرب مثـلًا لذلـك بولايـة بـلاد الإغريـق كمثـال فريد. لقـد ارتبط الرومـان بالآخييـن Achaeans والإيتولييـن بروابـط الصداقـة، ولـم

تجعل خدماتهم للرومان يتيحون لهم أن يحصلوا على أقل توسع في إقليمهم، وأضعفوا مملكة مقدونيا، وطردوا أنتيوكس Antiochus، ولم تغرهم بصداقة فيليب استمالاته لهم من دون أن يضعفوا نفوذه، ولم تجعلهم قوة أنتيوكس يوافقون على أن يجيزوا له السيطرة على أي ولاية في تلك المنطقة.

لأن الرومان سلكوا في هذه الأحوال مسلك جميع الأمراء العقلاء، الذين لا يقف نظرهم عند الاضطرابات الراهنة فحسب، بل يحسبون حساب الاضطرابات المقبلة أيضًا. ولا يفترون في اتقاء شرها؛ لأن المتاعب حين ترى مقدمًا يمكن علاجها بسهولة، ولكن إذا انتظرنا حتى تدهمنا، فالدواء يتأخر ميعاده، كما أن الداء يستعصى. ويحدث هنا ما يحدث في تلك الحميات غير المستقرة كما يقول الأطباء عند بدئها يصعب التفسير ويسهل العلاج، وفيما بعد تصبح معرفتها يسيرة ويصعب العلاج. وهذه هي الحال في شئون الدولة ـ حين نرى من بعيد الأخطار المتوقعة (بعد النظر من صفات الحكيم بمفرده) يسهل علاجها، ولكن حين ندعها تستفحل حتى يعرفها الجميع بسبب الافتقار إلى بعد النظر هذا، لا يوجد بعد أي دواء. ولذلك فإن الرومان حين كانوا يلاحظون الاضطرابات وهي ما زالت بعيدة استطاعوا دائمًا أن يجدوا العلاج لها، ولم يتيحوا لها قط أن تزداد لكي يتحاشوا بذلك حربًا؛ لأنهم عرفوا أن الحرب لا مناص منها، ولا يمكن تأجيلها إلا لصالح الطرف الآخر. ولهذا أعلنوا الحرب على فيليب وأنتيوكس في بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهما في إيطاليا، مع أنه كان في إمكانهم أن يتحاشوا في حينه هذه الحرب أو تلك، وهذا ما لم

يقع عليه اختيارهم ليقوموا به، فلم يأبهوا قط لأن يفعلوا بما يسمع كل يوم من أفواه حكمائنا، أي أن ننعم بمزايا الإبطاء والتأخير؛ ولكنهم آثروا الاعتماد على قدرتهم وحكمتهم؛ لأن الزمن يجلب معه جميع الأمور الخير والشر على السواء.

ولكن لنرجع إلى فرنسا ونفحص ما إذا كانت قد قامت بأي أمر من هذه الأمور، وسأتحدث عن لويس دون شارل ؛ لأنه يحسن بالمرء النظر إلى الإجراءات التي اتخذها الأول، فقد ملك في إيطاليا مدة أطول ، وسنرى حينئذ أنه قام بعكس جميع تلك الأمور التي يجب أن نقوم بها للاحتفاظ بالملك في ولاية أجنبية. لقد استدعى مطمع البنادقة دخول الملك لويس إيطاليا؛ وهؤلاء رغبوا في كسب نصف لمبارديا من وراء ذلك . إنني لن ألوم الملك على دخول إيطاليا، ولا على نصيبه منها؛ لأنه كان مضطرًّا إلى قبول أي صداقة أمكنه أن يجدها عندما رغب في أن يضع قدمه في إيطاليا، ولم يكن له أصدقاء فيها، بل كانت جميع الأبواب على العكس موصدة في وجهه جراء مسلك الملك شارل. وكان من الممكن أن تكلل مشروعاته بالنجاح السريع لو لم يرتكب فيما جرى عليه أخطاء أخرى.

لقد استعاد الملك مباشرة، بمجرد الاستيلاء على لمبارديا، السمعة التي أضاعها شارل. سلمت جنوا Genoa، وأصبح الفلورنسيون أصدقاء له، وتقرب إليه من دون استثناء مركيزمانتوا Mantua، وأدواق فرارا، وآل بنتيفولي Bentivogli، وسيدة فورلي Forli، وسادة فائنزا Faenza، وبيزاو Pesaro، وريميني Rimini، وكاميرينو Camerino، وبيومبينو Piombino، وأهل لوقا Lucca، وبيزا Pisa،

وسيينا Sienna. وكان في إمكان البنادقة حينذاك أن يروا آثار طيشهم، وكيف أنهم جعلوا الملك حاكمًا لما يربو على ثلثي إيطاليا ليكسبوا هم بذلك مدنًا قليلة في لمبارديا.

وما كان أسهل أن يحافظ الملك على سمعته في إيطاليا لو راعى القواعد التي سبق الكلام عنها، وسيطر سيطرة محكمة وثيقة على جميع أولئك الأصدقاء الذين كانوا كثيرين وضعفاء؛ منهم من يخشى الكنيسة ومن يخشى البنادقة؛ ومن ثم كانوا مضطرين دائمًا إلى أن يلتصقوا به، وكان يستطيع في سهولة بمساعدتهم أن يأمن جانب أي واحد منهم ما زال قويًّا. ولكن لم يكد يدخل ميلانو حتى فعل العكس بأن ساعد البابا الإسكندر على احتلال رومانا Romagna، ولم يفطن إلى أنه أضعف نفسه بالسير في هذا الطريق، بأن تخلى عن أصدقائه، وعمن لاذوا به، وقوى الكنيسة بأن أضعاف سلطات زمنية أخرى إلى قوتها الروحية التي منها تستمد مثل هذا السلطان. ولما كان قد أخطأ أولًا اضطر إلى أن يستمر في الخطأ، وإلى أن يدخل إيطاليا عندما كان يوقف أطماع الإسكندر ويمنعه من أن يصبح حاكم توسكانيا. ولما كان غير راض عن إنماء قوة الكنيسة، وفقد أصدقاءه، وكان يطمع حينئذ في مملكة نابولي، اقتسمها مع ملك إسبانيا، وجلب حينذاك شريكًا له في إيطاليا حيث كان هو بمفرده الفيصل، حتى أمكن أصحاب المطامع الساخطون عليه في ذلك الإقليم أن يجدوا غيره يلوذون به؛ وحيث كان يمكنه أن يترك في هذه المملكة ملكًا يخضع له، اغتصب ملكه لكي يأتي بغيره قادرًا على أن يطرده هو منها.

إن الرغبة في التملك أمر طبيعي وعادي جدًّا. وعندما يملك أولئك الذين يستطيعون ذلك بنجاح يطرون دائمًا ولا لوم عليهم، ولكن

العاجزين عن ذلك، بيد أنهم يرغبون فيه بأي ثمن، يرتكبون خطأ يستحق اللوم الشديد. فلو كان لفرنسا، على هذا الأساس، قدرة على الاستيلاء بقواتها الخاصة على نابولي، لكان ينبغي لها أن تفعل ذلك، وإلا فما كان يجب عليها أن تقتسمها. وإذا غفرنا لها اقتسام لمبارديا مع البنادقة؛ لأنه كان الوسيلة التي أتاحت لملك فرنسا أن يضع قدمه في إيطاليا، فإن الاقتسام الآخر يستحق اللوم؛ لأن الضرورة لم تبرره.

وهكذا ارتكب لويس خمسة أخطاء لقد دمر الدول الصغيرة، وزاد من نفوذ دولة واحدة في إيطاليا، وأتى في البلاد بأجنبي قوي جدًّا، ولم يذهب ليعيش هناك بشخصه، ولم ينشئ أي مستعمرة. وما كان ليصيبه من الأخطاء ضرر لو لم يخطئ الخطأ السادس، وهو أخذ الولاية من البندقية. فلو أنه لم يقو الكنيسة، ولم يأت بالإسبانيين إلى إيطاليا، لكان كسر شوكتهم أمرًا ضروريًّا وصحيحًا ولما كان قد اتخذ تلك الأساليب، كان عليه ألا يوافق على هدمهم أبدًا؛ لأن البنادقة لو كانوا أقوياء لأمكنهم أن يتصدوا لمحاولات الآخرين غزو لمبارديا. فمن ناحية، لم يكن يمكنهم أن يقبلوا أي إجراءات بها لا يحصلون عليها لأنفسهم. ومن ناحية أخرى، ما كان للآخرين أن يرغبوا في أخذها من فرنسا لكي يعطوها للبندقية، وما كانت لهم الشجاعة على مهاجمة الاثنين معًا.

وإذا كان لامرئ أن يقول: إن الملك لويس سلم رومانا إلى الإسكندر، ومملكة نابولي إلى إسبانيا؛ حتى يتحاشى بذلك حربًا؛ أرد عليه وأقول بناء على الأسباب التي قدمتها منذ مدة وجيزة: ينبغي للحاكم ألا يجيز أبدًا قيام اضطراب لكي يتجنب بذلك حربًا؛ لأن الحرب لا تتجنب بهذه الطريقة، بيد أن تأجيلها لا يضر أحدًا سواك.

وإذا زعـم آخـرون أن موقـف الملك لويس يعـزى إلى أنه وعـد البابا بالقيـام بتلـك الحملة لحسـابه فـي مقابـل تطليقه الملك مـن زوجته، وإسـناد الكاردينالية إلـى روهـان Rohan، أرد بما سـوف أذكره فيما بعـد عن وعود الأمـراء، وكيف ينبغي مراعاتهـا . وهكذا أضاع الملك لويس لمبارديا؛ لأنه لم يراع أي حال من تلك الأحوال التي قد راعاها الآخرون الذين اسـتولوا على الأقاليم ورغبوا في الاحتفاظ بها. وهذا ليـس بأمـر غريـب، ولكنه منطقـي وطبيعـي. تحدثت في هـذا الصدد مـع الكاردينـال روهان في نانتـس Nantes وڤالنتين، كما هو الاسـم المشهور لقيصر بورجاولد البابا، يحتل رومانا. قال لي الكاردينال: إن الإيطالييـن لم يفهموا معنى الحرب. وأجبته بأن الفرنسـيين لم يفهموا معنى السياسة؛ لأنهم لو كانوا قد فهموها لما أتاحوا للكنيسة أن تصبح قويـة جـدًّا. وتدلنـا التجربة علـى أن عظمة الكنيسـة فـي إيطاليا، وفي إسـبانيا أيضًا، تعزى إلى فرنسـا، وكذلك يرجع إليها سـقوط الكنيسة. ومـن ذلك يمكننا أن نسـتخلص قاعدة عامة صادقـة دائمًا، ولا تكذب إلا فيمـا ندر، وهي أن كل من يكون سـببًا لأن يصبـح غيره قويًّا يهلك هو نفسـه؛ لأنه يفعل ذلك إما عن طريق الحيلة، وإما عن طريق القوة، وهذان الأمران موضع شك من ارتفع إلى السلطان.

الفصل الرابع

لماذا لم تثر مملكة داريوس وقد احتلها الإسكندر على خلفائه عقب وفاته؟

وعند النظر إلى الصعوبات التي تكون في السيطرة على ولاية الاستيلاء عليها جديد، قد يعجب البعض: كيف حدث أن أصبح الإسكندر الأكبر سيد آسيا في سنين قليلة، ولم يكد يحتلها حتى عاجلته المنية، ولم تثر الولاية كلها على خلفائه، وكان المفروض عكس ذلك، واحتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم، ولم يعانوا صعوبات في ذلك سوى تلك التي ظهرت فيما بينهم بسبب مطامعهم الخاصة؟

وأجيب عن ذلك بأن الممالك التي عرفها التاريخ قد حكمت بطريقتين: إما حكمها أمير وأتباعه، يساعدونه في حكم المملكة كوزراء بفضله وإجازة منه، وإما حكمها أمير ونبلاء يتبوأون مراكزهم من دون مساعدة من الأمير، ولكن لقدمهم. ولمثل هؤلاء النبلاء ولايات، ومواطنون لهم خاصة يعترفون بهم سادة عليهم بطبيعة الحال. وللأمير في تلك الولايات التي يحكمها أمير وأتباعه سلطان أكبر من سلطان الأمير الثاني؛ لأنه لا يوجد فوقه سواء. وإذا كان يدان لغيره بالطاعة، فما ذلك إلا لأنهم وزراء الأمير ورجاله الرسميون، ولا أحد يحمل لهم ودًّا خاصًّا بهم.

ولهذين النوعين من الحكم في عصرنا مثالان هما: حكومة تركيا، وحكومة ملك فرنسا. إن حاكمًا فردًا يحكم المملكة التركية جميعها،

وغيره أتباع له. وهو يقسم المملكة إلى «سنجقيات»، ويرسل إليها حكامًا إداريين متباينين، ويغيرهم ويستدعيهم كما يروق له، ولكن ملك فرنسا يحيط به عدد كبير من النبلاء القدامى، يعترف لهم رعاياهم بحالتهم هذه، ويدينون لهم بالولاء، ولهم امتيازاتهم التي لا يقدر الملك على أن يحرمهم منها من دون أن يعرض نفسه للخطر. وكل من ينظر الآن إلى هاتين الدولتين يرى أنه يصعب الاستيلاء على دولة الأتراك، ولكن تسهل جدًّا السيطرة عليها إذا هزمت. ومن ناحية أخرى، فإن قهر مملكة فرنسا أمر أسهل من ذلك من وجوه كثيرة،ولكن ثمة صعوبة كبيرة في السيطرة عليها.

وعلل صعوبة احتلال المملكة التركية هي أن المحتل لا يمكن أن يستدعيه إليها أمراء تلك المملكة، كما لا يلوح له أمل في أن تجعل حملته يسيرة ثورة يقوم بها أولئك الذين بجانب الحاكم،كما يتضح ذلك من الأسباب التي قدمناها. إن إفسادهم أمر صعب لكونهم جميعًا عبيدًا للسلطان وأتباعًا له. وحتى لو فرضنا أننا أفسدناهم فلا أثر كبيرًا يرجى من وراء ذلك؛ لأنهم لا يستطيعون أن يضموا الشعب إليهم، وذلك لما ذكرنا من أسباب. ولذا فعلى كل من يهاجم سلطان الأتراك أن يستعد لملاقاة قواته المتحدة،وأن يركن إلى قوته الخاصة أكثر مما يعتمد على الاضطرابات التي يقوم بها غيره. ولكن إذا كسر السلطان وهزمه تمامًا في حرب، فما من شيء ليخافه سوى أسرة الأمير، فلو محق هذه من الوجود فلا يعود هناك من يخشاه؛ لأن غيرهم ليس له سلطان على الشعب. ولما كان المنتصر لا يستطيع قبل النصر أن يأمل فيهم، فهو في حاجة إلى أن يخشاهم بعد النصر.

والحال عكس ذلك في الممالك التي حكمها مثل حكم مملكة فرنسا؛ لأن دخولها سهل يسير بأن يكسب الأمير بعض نبلاء المملكة في صفه؛ حيث إن هناك دائمًا الساخطين، وأولئك الذين يرغبون في تجديد الأوضاع القديمة. إن هؤلاء يستطيعون أن يفتحوا لك الطريق، وأن يجعلوا لك النصر سهل المنال؛ وذلك للأسباب التي سبق أن قررتها. ولكن تظهر فيما بعد صعوبات لا نهاية لها لو أنك أردت الإبقاء على الملك، سواء من جانب أولئك الذين مدوا إليك يد المساعدة، أم ممن قد تعسفت معهم. ولن يكفيك أن تتخلص نهائيًّا من أسرة الأمير؛ لأنه يبقى هناك أولئك النبلاء الذين سيقودون الثورات الجديدة؛ ولما كنت لا تستطيع إرضاءهم، أو إفناءهم فإنك تفقد الولاية وما لاحت فرصة لذلك.

والآن، لو نظرت فيما كانت عليه طبيعة حكم داريوس فإنك تجدها شبيهة بمملكة الأتراك؛ ومن هنا كان على الإسكندر أن يقلبها تمامًا، وأن يغزو المنطقة. وبعد هذا الغزو، وموت داريوس، استتبت أمور الولاية له؛ وذلك للأسباب التي سبق أن ناقشناها. ولو ظل خلفاؤه متحدين، لطاب لهم ملكها في سلام، ولما حدثت أي قلاقل في المملكة سوى ما أثاروه هم أنفسهم. ولكن من المستحيل أن نملك بمثل تلك السهولة بلادًا كفرنسا في نظامها الأساسي. وهذا هو سر الثورات، بين وقت وآخر، ضد الرومان، في إسبانيا، وفرنسا، وبلاد الإغريق؛ نظرًا إلى الإمارات العديدة التي وجدت في تلك الولايات. لقد ظل الفتح الروماني مزعزع الأركان حتى محى ذكر هذه الإمارات تمامًا، ولكن مع قوة الإمبراطورية ودوامها وامحاء هذا الذكر أصبح الرومان سادة لا منافس لهم. وحين دب بينهم الخلاف

كان فـي مقـدور أي واحـد منهم أن يعـول على تأييد ذلـك الجزء من المنطقـة الذي أقام فيه سـلطانه. ولـم يعترف بالرومـان كحكام هناك إلا بعـد انقراض أسـرة الأمراء القديمـة. فإذا نظرنا إلى هـذه الأمور، فليس لإنسـان أن يعجب إذن للسـهولة التي استطاع بها الإسكندر أن يسيطر على آسيا، ولا تدهشه الصعوبات التي لاقاها غيره في السيطرة علـى أقاليم فتحها، مثل بايـروس Pyrrhus وكثير غيره؛ لأن العلة هنا ليسـت قـدرة الفاتـح تضاءلت أم عظمـت، ولكن الأمـر يتوقف على اختلاف الظروف.

الفصل الخامس

في طريقة حكم المدن والبلاد التي كانت تعيش قبل احتلالها في ظل قوانينها الوطنية

وعندما تكون تلك الولايات التي قد استولينا عليها معتادة على الحياة الحرة في ظل قوانينها الخاصة، فثمة ثلاث طرق للسيطرة عليها. الأولى، أن يخربها الأمير. والثانية، أن يذهب ليعيش هناك بشخصه. والثالثة، أن يجيز لها أن تعيش في ظل قوانينها الوطنية، ويحصل منها على الجزية، ويقيم في داخل البلاد حكومة تتألف من عدد قليل يحافظ عليها صديقة لك. ولما كانت هذه الحكومة صنيعة الأمير، فهي تعلم أنها لا تستطيع أن تبقى من دون صداقته أو حمايته، ولن تدخر وسعًا للمحافظة عليهما. وزيادة على ذلك، فإنك إذا رغبت بطريقة أسهل في أن تحتفظ بمدينة اعتادت على الحرية، يمكنك أن تسيطر عليها بأسهل الطرق قاطبة، ألا وهي أن تجعل حكامها من مواطنيها.

ومثال ذلك الإسبرطيون والرومان. لقد سيطر الإسبرطيون على أثينا وطيبة Thebes بأن أقاموا في داخلها حكومة أقلية، ومع ذلك ضاعتا منهم. وخرب الرومان كابوا Capua، وقرطاجنة Carthage، ونومنطة Numantia؛ من أجل السيطرة عليها، ولكنهم لم يفقدوها. وأرادوا أن يسيطروا على بلاد الإغريق بطريقة تقرب من تلك التي بها

سيطر الرومان عليها، بأن تركوها حرة تحيا في ظل قوانينها الوطنية، ولكنهم لم يوفقوا، حتى اضطروا، من أجل الاحتفاظ بها، إلى أن يخربوا مدنًا كثيرة في تلك المنطقة. ويرجع ذلك إلى أنه لا توجد في حقيقة الأمر طريقة أكيدة للسيطرة عليها سوى تخريبها. ويمكن لكل من يصبح حاكمًا لمدينة حرة ولا يخربها أن يتوقع منها تدميرها هي له؛ لأنها ستجد على الدوام الدافع إلى الثورة باسم الحرية، وباسم أوضاعها القديمة، وهذه أمور لا تنسى، لا بمرور الزمن، ولا بما يعود على أهلها من مزايا. ومهما فعل الحاكم، ومهما احتاط للأمر، فإنهم لن ينسوا ذلك الاسم، أو تلك الأوضاع، ولكنهم سيستجيبون لندائها في الحال عند كل طارئ، كما فعلت بيزا بعد أن سيطر الفلورنسيون عليها واستعبدوها سنين طويلة. ولكن يستطيع الأمير أن يكسبهم في جانبه، وأن يقيم نفسه فيها آمنًا، وذلك بصورة أيسر، حينما تكون هذه مدنًا أو مناطق قد ألفت من قبل الحياة في ظل أمير قد انقرضت أسرته. لأنها ألفت الخضوع من ناحية، ومن ناحية أخرى، لا يمكنها، وقد فقدت أميرها القديم، أن تجمع كلمتها على اختيار واحد من أبنائها ليكون أميرًا؛ فهي لا تعرف كيف تعيش حياة حرة. وعلى ذلك فهي، لهذه الظروف، أبطأ من غيرها في شهر السلاح عليه. ولكنا نجد في الجمهوريات حياة أعظم من هذه الحياة، ومقتًا أشد، ورغبة في الانتقام أقوى. إنها لاتذر جانبًا ذكرى حريتها القديمة، ولا تستطيع ذلك، ومن هنا فإن أوثق الطرق للسيطرة عليها هي : إما تخريبها، وإما الإقامة فيها.

الفصل السادس

في الولايات الجديدة التي اكتسبت بأسلحة الأمير الخاصة وقدراته

لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة عالية جدًّا، سواء فيما يتصل بالأمير أو بالولاية، وذلك في أثناء الحديث عن الولايات الجديدة؛ لأن الناس يغلب عليهم السير دائمًا في الدروب التي طرقها غيرهم، وأن يجروا أعمالهم على جادة المحاكاة. ولما كان الرجل الحول القلب لا يستطيع دائمًا أن يقتفي تمامًا آثار الآخرين، ولا يتسنى له أن يبلغ امتياز أولئك الذين نقلدهم، فينبغي له دائمًا أن يسير على الدرب الذي طرقه عظماء الرجال، وأن يقلد أولئك الذين بلغوا أعلى درجات الامتياز، حتى إذا لم يبلغ درجتهم من العظمة، فإنه ينال منها، على أي حال، قدرًا ما. وسوف يصنع المرء صنع الرماة العارفين الذين يصوبون إلى نقطة أعلى بكثير من تلك التي يرغبون في إصابتها عندما تكون بعيدة جدًّا، ويعرفون مدى إطلاق قوسهم للسهم، لا لكي يصيبوا بسهمهم هذا الارتفاع، ولكن ليصيبوا بوساطته الهدف المرغوب فيه.

وعلى ذلك أقول: تتفاوت السيطرة على زمام الأمور في الولايات الجديدة التي يوجد فيها أمير جديد تبعًا لقدرة من يستولي عليها. ولما كان بلوغ فرد عادي مرتبة الإمارة بالفعل يفترض فيه مقدمًا قدرة فائقة، أو حظًا سعيدًا، يبدو أن أحد هذين الأمرين أو الآخر قد يخفف

بدرجة معينة مصاعب جمة. ومع ذلك، فإن أولئك الذين لم يركنوا إلى حسن الطالع إلا قليلًا صانوا أنفسهم على أحسن وجه. ويخفف أيضًا العبء عن الأمير ضرورة إقامته شخصيًّا في إقليمه الجديد، حين لا يكون له غيره. ولكن عندما نتحدث عن أولئك الذين أصبحوا حكامًا بفضل قدراتهم الممتازة، لا بفضل الحظ، أعد أعظمهم جميعًا موسى Moses، وقورش Cyrus، ورومولوس Romulus، وتيسيوس Theseus وأشباههم. ومع أن المرء لا ينبغي له أن يتحدث عن موسى، لا شيء سوى أنه رسول الله الذي عمل بما أمره به، إلا أنه يظل جديرًا بالإعجاب، ولو لمجرد ذلك الفضل الذي جعله أهلًا لأن يكون كليم الله. ولكن إذا نظرنا إلى قورش وغيره الذين كسبوا الممالك وأرسوا قواعدها فسوف نجدهم جميعًا يستحقون الإعجاب. وإذا اختبرنا أعمالهم الخاصة ومناهجهم فلن تظهر مختلفة اختلافًا كبيرًا عن أعمال موسى، بالرغم من أنه كان رسول الله. فإذا فتنا* حياتهم وأعمالهم فسوف نرى أنهم لم يدينوا بشيء إلى الحظ، ولكن الفرصة هي التي وهبتهم المادة التي صاغوها في الصورة التي رأوها مناسبة. فلولم تكن تلك الفرصة لضاعت قدراتهم هباء، ولو لم تكن قدراتهم لأصبحت الفرصة من دون جدوى.

وهكذا كان من الضروري أن يجد موسى شعب إسرائيل عبيدًا في مصر يضيمهم المصريون؛ حتى يصبحوا على استعداد للسير خلفه لكي يتخلصوا من العبودية. وكان ضروريًّا ألا يستطيع رومولوس البقاء في آلبا Alba، وأن يترك في العراء يوم ميلاده حتى يصبح ملك روما، ومؤسس تلك الأمة. وكان لابد من أن يجد قورش الفرس

* الفتنة: الاختبار.

ساخطين على إمبراطورية الميديين Medes، وأن يجدوا هؤلاء منحلين ومتخنثين جراء السلم الطويل. ولو لم يكن تيسيوس قد وجد الأثينيين مشتتين لما أمكنه أن يبين عن قدراته. إذن، لقد منحت هذه السوانح هؤلاء الرجال فرصتهم، ومكنتهم خصالهم العظيمة من الاستفادة منها؛ لكي يجعلوا أوطانهم كريمة عزيزة، ويزيدوها فلاحًا وسعدًا.

وأولئك الذين يصبحون كهؤلاء أمراء بتدريب قدراتهم يحصلون على ولاياتهم بصعوبة، بيد أنهم يحافظون عليها بسهولة. والصعوبات التي يلاقونها في ذلك ترجع، من ناحية، إلى القواعد والتعديلات الجديدة التي يضطرون إلى إدخالها لكي يقيموا ولايتهم بسلام، ويجب أن نعتبر أن ليس هناك ما هو أصعب من أن تبدأ نظامًا جديدًا للأمور ومن تنفيذه، ونجاحه مشكوك في أمره، ولا يوجد ما هو أخطر من تناوله. لأن للمصلح أعداء بين جميع أولئك الذين يفيدون من النظام القديم، ومن يؤيدونه (المصلح) تأييدًا فاترًا بين أولئك الذين قد يفيدون من النظام الجديد كافة. ويرجع هذا الفتور، من ناحية، إلى أنهم يخشون خصومهم الذين يكون القانون في صالحهم. ويعزى ذلك، من ناحية أخرى، إلى قابلية البشر لعدم التصديق؛ فهم لا يؤمنون بأي جديد إيمانًا صادقًا حتى يجربوه بالفعل. وعلى ذلك يهاجم المصلح بحماسة شديدة خصومه في كل فرصة بينما يدافع عنه سواهم دفاعًا فاترًا، حتى إنه يواجه الخطر العظيم بين هؤلاء وأولئك. ولذا فلابد من أجل تحري الحقيقة تمامًا في هذه المشكلة أن نبحث فيما إذا كان يستطيع هؤلاء المجددون أن يعولوا على أنفسهم، أو

هم مضطرون إلى الاعتماد على غيرهم. وبعبارة أخرى نقول: هل من الضروري لهم لكي ينفذوا مارسموه أن يستميلوا غيرهم، أو هم يستطيعون القهر؟ وهم، في الحالة الأولى، لا يفوزون دائمًا إلا فوزًا هزيلًا، ولا ينجزون شيئًا. وهم لا يفشلون إلا فيما ندر حينما يكون في وسعهم الاعتماد على سلطانهم الخاص، واستخدام القوة. وعلى ذلك حدث أن انتصر جميع الأنبياء غير العزل. والسبب، بالإضافة إلى ما قيل، أن طبيعة البشر متقلبة، ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور، ولكن من العسير أن نبقي على إيمانهم هذا. ومن هنا لزم ترتيب الأمور بحيث يمكننا استخدام القوة لنكرههم على الإيمان ما ارتدوا عنه . لو كان موسى وقورش وتيسيوس ورومولوس عزلًا لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يراعون دساتيرهم أمدًا طويلًا، كما حدث في زماننا هذا للأخ جيرولامو سافونارولا Fra Girolamo Savonarola الذي فشل في شرائعه الجديدة فشلًا ذريعًا حينما أخذت جمهرة الناس تكفر به، ولم يكن لديه من وسيلة للإبقاء على المؤمنين في صفه، أو ليحمل من لم يؤمن به على الإيمان . ولذا يعاني أمثال هؤلاء الرجال صعوبة عظيمة في شق طريقهم، وجميع الأخطار التي يلاقونها تحدق بهم في الطريق، وعليهم أن يتغلبوا عليها بقدراتهم الخاصة. ولكن حينما تتم لهم الغلبة عليها، ويشرع القوم في تقديسهم، ويبطشون بأولئك الذين يحسدونهم، فإنهم يظلون أقوياء آمنين، سعداء كرماء.

وسوف أضيف إلى الأمثلة العالية السابقة مثلًا دونها، ولكن يمكن على أي حال، أن تجرى عليه المقارنة إلى حد ما، وسوف يستخدم مثالًا لجميع هذه الحالات. إنه هيرو السيراكوزي الذي أصبح أمير سيراكوزة بعد أن كان فردًا عاديًّا، من دون أي مساعدة من الحظ

سوى الفرصة. لأن أهل سيراقوزة، وقد كانوا مضطهدين، اختاروه رئيسًا لهمْ، وارتقى بقدرته من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة. و «لم يكن ينقصه لكي يحكم، وهو ما زال فردًا عاديًّا، سوى المملكة»، كما قال عنه الكتاب. ألغى الجندية القديمة، وأقام أخرى جديدة، وتخلى عن جميع الأحلاف وعقد غيرها. ولما أصبح له، على هذا الأساس، أصدقاء وجنود من اختياره الخاص، استطاع أن يشيد فوق هذه الأسس مطمئنًا، حتى إنه عانى في الحصول على ولايته عناء كبيرًا، بينما قاسى قليلًا في المحافظة عليها.

الفصل السابع

في الإمارات الجديدة التي اكتسبت بالحظ والسلاح الأجنبي

إن أولئك الذين يرقون من أفراد عاديين ليصبحوا أمراء لمجرد الحظ، لا يعانون عناء كبيرًا في الصعود، لكنهم يقاسون كثيرًا في توطيد ولايتهم. هم لا يقابلون في الطريق إلى الإمارة أي عقبات؛ لأنهم يطيرون فوقها، ولكن تظهر جميع عقباتهم حينما يحتلون مكانهم. وأمثال هؤلاء هم الذين منحوا ولاية إما في مقابل مال، وإما بفضل هذا الذي يمنحها، كما حدث لكثيرين في بلاد الإغريق، في مدن إيونيا Ionia وهلسبونت Hellespont، الذين صنع منهم داريوس أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته ومجده. وأمثال هؤلاء أيضًا أولئك الأباطرة الذين رقوا من مواطنين عاديين إلى السلطان برشوة الجيش. وهؤلاء يعتمدون اعتمادًا مطلقًا على حظ أولئك الذين يرفعونهم وإرادتهم الخيرة، وكلا الأمرين لا يدوم ولا يثبت بصورة مفرطة. إنهم لا يعرفون كيف يحافظون على ولايتهم، كما لا يكونون في موقف يصونونها فيه. فإذا لم يكن الواحد منهم فردًا ذا عبقرية عظيمة فلا يحتمل لذلك الذي عاش دائمًا في مركز عادي أن يعرف كيف يأمر وينهي. وهم غير قادرين على المحافظة على أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات صديقة لهم وموالية. وفضلًا عن ذلك، فإن الدول التي ترسي قواعدها سريعًا كجميع الأشياء الأخرى ذات البدايات والنمو السريع، لا تستطيع أن تتجذر بعمق، وتتشعب

في أماكن رحبة حتى إن أول عاصفة تهب تدمرها، إلا إذا كان للفرد الذي وصل إلى الإمارة كما قلنا تلك العبقرية العظيمة التي تجعله قادرًا على أن يتخذ الخطوات العاجلة لصيانة ما قد رمى به الحظ في حجره، ثم يضع تلك الأسس التي يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء.

وسوف أضرب هنا مثالين قد حضرا في الذاكرة لهاتين الطريقتين من طرق الوصول إلى الإمارة، أي بالقدرة أو بحسن الطالع، وهما مثالا فرنتشسكو سفورتسا، وقيصر بورجا Cesare Borgia. أصبح فرنتشسكو دوق ميلانو بالوسائل المناسبة وبقدراته، بعد أن كان مواطنًا عاديًّا؛ وصان بقليل عناء ما قد حصل عليه بعد صعاب جمة. ومن ناحية أخرى، حصل قيصر بورجا، المشهور باسم دوق فالنتين، على الملك بفضل نفوذ أبيه، وفقده حين أفل ذلك النفوذ، وذلك على الرغم من أنه لم يدخر وسعًا في اتخاذ أي وسيلة أو جهد يقوم به رجل قادر حكيم لكي يوطد نفسه توطيدًا راسخًا في ولاية قد منحتها إياه حظوة غيره وأسلحته. ويرجع ذلك إلى أن من لم يرس القواعد في البدء يستطيع أن يضعها بقدراته العظيمة فيما بعد، كما قلنا، على الرغم مما في ذلك من عناء عظيم لمهندس البناء، وخطر على البناء. وحيئذ لو نظر المرء بعين الاعتبار إلى الإجراءات التي اتخذها الدوق فسوف يرى أي أسس مكينة قد وضع لسلطانه المقبل، ولا أعد فحصها غير لازم؛ لأنني لا أعلم مبادئ ينسج على منوالها أمير جديد أحسن مما نجد في أعمال الدوق. وإذا كانت الوسائل التي اتخذها غير ناجحة، فليس هذا لخطأ له، ولكن السبب هو الحظ المفرط في التعاسة، ولا شيء سواه.

حين أراد الإسكندر السادس Alexander VI أن يعلي من شأن ولده الدوق، كان عليه أن يلاقي صعابًا كثيرة جدًّا عاجلة وآجلة. فأولًا، لم ير سبيلًا ليجعل قيصر حاكمًا لأي ولاية لم تكن ملكًا للكنيسة. وعرف أن دوق ميلانو والبنادقة قد لا يوافقون على محاولته أخذ مدن للبابا؛ لأن فائنزا وريميني كانتا حتى ذلك الحين تحت حماية البنادقة. وزيادة على ذلك، رأي أن قوات إيطاليا العسكرية، وبخاصة تلك التي يستطيع أن يستخدمها، في أيدي من يخشون عظمة البابا؛ ولذلك لم يستطع الاعتماد عليها؛ لأنها كانت جميعًا تحت قيادة الأورزني Orsini والكولونا Colonna وأتباعهما. ولذلك كان من الضروري له أن يجعل الحالة الراهنة تضطرب، وأن يثير الاضطرابات في الولايات الإيطالية لكي يضمن السيادة في جزء منها. وكان هذا الأمر يسيرًا؛ لأنه وجد البنادقة مدفوعين بدوافع أخرى قد استدعوا الفرنسيين إلى دخول إيطاليا، وهذا ما لم يعارضه فحسب، بل يسره بفسخ الزواج الأول للملك لويس. وهكذا دخل الملك إيطاليا بمساعدة البنادقة وموافقة الإسكندر. ولم يكد يصل إلى ميلانو حتى أخذ منه البابا جنودًا لحملته في رومانا التي أمكن فتحها بفضل صيت الملك وشهرته. ولما تم له الاستيلاء عليها على هذا النحو، وهزيمة الكولونا، عاقه عن لاحتفاظ بها والاستمرار في زحفه أمران. الأول، قواته التي شك في ولائها. والآخر، نية فرنسا. وبعبارة أخرى نقول: إنه خشي أن تتخلى عنه قوات الأورزني التي استخدمها، وهي لا تعوقه فحسب عن زيادة التوسع، بل قد تأخذ منه ما قد فتح حتى الآن. كما خشي من أن يأتي الملك الأمر نفسه. وكانت البينة عنده على هذا بالنسبة إلى الأورزني، أنه بعد أن أخذ فائنزا أغار على بولونيا

فلاحظ تخلفهم. أما الملك، فقد فطن إلى نواياه حين استولى على دوقية أوربينو Urbino، وحمل على توسكانيا، وأوقفه الملك عن هذه الحملة. ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعود إلى الاعتماد على أسلحة غير أسلحته، أو يعول على حظ غير حظه هو. لقد كان أول ما قام به هو إضعاف حزبي الأورزني والكولونا في روما، بأن كسب في صفه جميع أنصارهما الذين كانوا أعيانًا، وجعلهم أتباعًا له، بأن أجزل لهم العطاء، وعينهم في مراكز، وولاهم أعمالًا، كل على حسب قدره، حتى انقطعت صلاتهم بحزبيهم في بحر أشهر قليلة، والتفوا حول الدوق كل الالتفاف. وبعد ذلك انتظر فرصة تسنح لكي يسحق زعماء الأورزني، وكان قد بطش بزعماء الكولونا. وحين سنحت الفرصة استغلها استغلالًا مفيدًا؛ لأن الأورزني حين رأوا أخيرًا أن عظمة الدوق والكنيسة تعني سقوطهم دعوا إلى عقد ديت diet في ماجيوني Magione ببيروجينو Perugino وحينذاك اندلعت ثورة أوربينو، وحدثت اضطرابات في رومانا، وظهرت للدوق أخطار لا حصر لها، وتغلب عليها جميعًا بمساعدة الفرنسيين. وحين استعاد سمعته، لجأ إلى الخديعة، ولم يعد يعتمد على فرنسا، أو على قوات أجنبية أخرى لكيلا يجازف بنفسه بالتحالف معهم. أخفى أغراضه جيدًا حتى سالمه الأورزني، ونزع شكوك ممثلهم السيد باولو Signor Paulo بكل أنواع الحفاوة؛ فقدم له اللباس، والأموال، والخيل، حتى أغرتهم سذاجتهم بالحضور إلى سنجاجليا Sinigaglia وأن يقعوا في يده لقد وضع الدوق أسسًا قوية جدًّا لسلطانه، بأن تخلص نهائيًّا من هؤلاء الزعماء بهذه الصورة، وجعل أنصارهم أصدقاء له، واستولى على جميع رومانا مع دوقية أوربينو، وكسب ود السكان الذين أخذوا يحسون بمزية حكمه.

ولمـا كان هـذا الـدور جديـرًا بمراعـاة الآخرين، وحـري بهم أن ينسجوا على منواله، فلن أترك الحديث فيه. كان إقليم رومانا يحكمه، حين استـولى عليه الدوق، حكام ضعفاء، وكانوا ينهبون رعيتهم أكثر من أن يحكموها، ويعملون على فرقتهم أكثر من العمل على وحدتهم، حتـى أصبحت المقاطعة فريسـة للصوصية والسـلب، ولجميع أنواع الفوضى. ولذلك رأي الدوق أن إقامة حكومة صالحة فيها من الأمور الضروريـة حتى يسـالموه ويدينـوا لحكمه بالطاعة؛ فولـى عليهم من أجـل هذا الغرض رميرو دي أوركو Remiro de orco. ولقد كان هذا رجلًا قاسـيًا وقديـرًا، ومنحه الدوق أوسـع السـلطات، ونجح رميرو نجاحًـا عظيمًا في تنظيـم البلاد وتوحيدها في زمـن قصير. ولما رأي الدوق، حينذاك، أن السـلطة المسـرفة غير مناسـبة، وخشـي أن تولد الكراهية في النفوس، أنشـأ في مركـز الولاية دارًا مدنية للعدالة تحت رياسـة رجل ممتـاز، وعينت فيهـا كل مدينة محاميهـا الخاص. ولما علـم أن قسـوة الأمس قد ولـدت في النفوس قدرًا مـن الكراهية، قرر أن يظهر للعيان أن كل قسوة لحقت بالناس فيما مضى لـم تكن لأوامر أصدرهـا، وإنمـا ترجـع إلى ميول وزيره الخشـنة؛ وذلـك حتى يطهر النفوس ويكسـبها تمامًـا في جانبه. وحين وجـد الفرصة قتل رومير، وشـطر جسده شطرين، وألقاه ذات صباح وسط ميدان عام في تشزينا Cesena، وبجانبه قطعة من الخشـب، وخنجر ملطخ بالدماء. أذهلت وحشـية هذا المنظر الشـعب، وأثارت في الوقت نفسه رضاه؛ ولكن لنعد من حيث استطردنا.

والآن، وقد أصبح الدوق قويًّا، وفي مأمن من الأخطار الراهنة إلى حد ما، ومسلحًا هو نفسه، وقضى إلى حد كبير على القوى المجاورة

التي قد تؤذيه، لم يبق عليه الآن، إذا رغب في أن يواصل الفتح، سوى أن يفوز باحترام فرنسا له؛ لأنه علم أن الملك الذي كان قد كشف خطأه مؤخرًا قد لا يمد إليه يد المساعدة أبدًا، ولذا بدأ يبحث عن أحلاف جديدة، ويراوغ فرنسا في مناسبة الحملة التي كان الفرنسيون يقومون بها تجاه نابولي ضد الإسبانيين الذين كانوا يحاصرون جيتا Gaeta. لقد كان يقصد أن يستوثق منهم، وكان يستطيع أن يوفق بسرعة في ذلك لو أمد الله في حياة الإسكندر.

كانت هذه هي الإجراءات التي اتخذها الدوق لمواجهة الحاضر. أما بالنسبة إلى المستقبل، فقد خشي أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة، ولربما سعى إلى أن يسلب منه ما قد منحه إياه الإسكندر؛ ولذا أخذ يعمل على اتقاء ذلك بأربعة طرق. فأولًا، استأصل شأفة جميع من يجري في عروقهم دم الأسر الحاكمة التي كان قد اغتصب ملكها؛ وذلك لكي يجرد البابا من أي فرصة يستغلها ضده. وثانيًا، كسب جميع نبلاء روما في صفه ليكبح بهم جماح البابا. وثالثًا، لم يأل جهدًا في السيطرة على مجلس الكرادلة. ورابعًا، حصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبير حتى يستطيع بمفرده أن يصد أول هجوم يشن عليه. وعند موت الإسكندر كان الدوق قد حقق من هذه الأمور ثلاثة، وأوشك على أن ينجز الرابع منها؛ لأنه دق عنق كثير ممن استطاع أن تصل إليه يداه من الحكام السابقين، وفر منهم عدد ضئيل جدًّا؛ وضم إلى صفه نبلاء روما، وكان له نفوذ عظيم في مجلس الكرادلة، أما بالنسبة إلى الأملاك الجديدة، فقد اختط لنفسه أن يصبح سيد توسكانيا، وقد كان ملك بروجيا Perugia وبيومبينو Piombino، من مدة وجيزة، وفرض حمايته على بيزا؛ ولقد أخذها عندما لم يعد

يخشى الفرنسيين. (لأن الإسبان كانوا قد جردوا الفرنسيين من مملكة نابولي بصورة جعلت كلا الطرفين مضطرًّا إلى أن يخطب وده). وبعد ذلك سلمت لوقا Lucca و سيينا مرة واحدة؛ بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من ناحية، وخوفًا من ناحية أخرى؛ لأنها كانت لا تملك أي موارد، حتى إنه لو وفق التوفيق الذي قدر له في السنة نفسها التي توفي فيها الإسكندر لفاز الدوق بقوة وشهرة تمكنانه من المحافظة على نفسه من دون أن يعتمد على حظ غيره أو قوته، ولكنه يستطيع أن يركن إلى سلطانه وقدرته فحسب؛ بيد أن الإسكندر توفي بعد خمس سنوات من امتشاق قيصر بورجا حسامه لأول مرة. ولم يبق للدوق سوى ولاية رومانا وطيدة الأركان، والمشروعات الأخرى معلقة في الفضاء بين جيشين قويين جدًّا ومعاديين، وهو يشكو داء عضالًا. ولكن كانت للدوق تلك الحيوية والقدرة، وعرف جيدًا كيف يكسب تأييد الرجال أو كيف يقهرهم، وعرف جيدًا كيف يكسب تأييد الرجال أو كيف يقهرهم، وكانت قواعد ملكه التي قد وضعها في مدة وجيزة قوية مكينة جدًّا، حتى إنه لو لم يكن هذان الجيشان أمامه، أو كان في صحة جيدة، لأمكنه أن يتغلب على الصعاب الأخرى كافة. ونشاهد قوة الأسس التي وضعها من أن رومانا انتظرته بالفعل لما يزيد على شهر. ومع أنه كان في روما الحي الميت، إلا أن مركزه ظل سليمًا. وعلى الرغم من أن الباجليوني Baglioni، والفيتللي Vitelli والأورزني دخلوا روما، فإنهم لم يجدوا فيها أتباعًا ضده. لقد كان في مقدور الدوق، على الأقل أن يحول بين كرسي البابوية ومن لا يرغب هو فيه، وذلك إذا لم يكن يستطيع أن ينصب فيه من يشاء؛ وربما تيسرت له كل الأمور لو كان سليمًا معافى حين وفاة الإسكندر. لقد

أخبرني يوم انتخاب يوليوس الثاني بأنه قد فكر في كل ما عساه أن يحدث عند وفاة أبيه، واحتاط لجميع الأمور، غير شيء واحد لم يدر بخلده قط، ألا وهو أن يكون هو ذاته قريبًا من حافة القبر عند وفاة أبيه.

ولذلك حين أستعرض جميع أعمال الدوق لا أجد ما يلام عليه، بل على العكس، أحس بأنني ملزم بأن أرفعه، كما فعلت، مثالًا ليحتذى به كل من وصل إلى الحكم بحظ غيره أو بأسلحته. ولم يكن في إمكان الدوق صاحب الشجاعة الفائقة والطموح الرفيع أن يفعل غير ما فعل، وما خابت خططه إلا لمرضه، وقصر حياة الإسكندر. ولذا فإن الواجب على كل من يعد من ضرورات إمارته الجديدة تأمين نفسه ضد الأعداء، وكسب الأصدقاء، والغلبة بالقوة أو بالخديعة، وأن يكون محبوبًا ومهيبًا من الشعب، يسير خلفه جنوده ويجلونه، وأن يسحق كل من في مقدورهم إيذاءه ومن قد يؤذونه، وأن يتناول القديم من الأوضاع بالتجديد، وأن يكون قاسيًا وشفيقًا، نبيل الخصال، رحب التفكير وأن يلغي الجندية القديمة، وينشيء جندية جديدة، ويبقى بينه وبين الملوك والأمراء على الصداقة بطريقة تفرحهم إذا نفعوه، ويخافونه إذا أضروه مثل هذا الأمير لا يستطيع أن يجد مثالًا يحتذى به أفضل من أعمال هذا الرجل. بيد أن اللوم الوحيد الذي يوجه إلى الدوق، هو انتخاب يوليوس الثاني للبابوية. لقد أساء الاختيار، وكان في مقدروه كما قيل، أن يعوق انتخاب أي كردينال للبابوية، ما دام لم يتم له انتخاب البابا الذي يوافقه هو. وكان يجب عليه ألا يسمح أبدًا بانتخاب أي كردينال من الكرادلة قد أساء

هو إليه، أو من قد يخشاه الدوق حين يرقى هذا إلى كرسى البابوية؛ لأن الكراهية أو الخوف يدفع الرجال إلى الأذى. إن أولئك الذين قد أساء إليهم هم: القديس بطرس آدڤنكولا، والقديس جورج ، وآسكانيو وغيرهم. وكان غير هؤلاء جميعًا سيخشونه لو انتخبوا للبابوية إلا روهان والكرادلة الإسبانيون. فهؤلاء يخشونه لما بينهم وبينه من التزامات وصلة، وروهان لنفوذه العظيم؛ فلقد كان على قرابة بملك فرنسا. ولهذه الأسباب كان على الدوق أن يوجد، أولًا وقبل كل شيء، في الكرسي البابوي أحد الإسبانيين، فلو لم يكن يقدر كان عليه حينئذ أن يوافق على تعيين روهان لا القديس بطرس. إن كل من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطئ خطأ كبيرًا. ولهذا أخطأ الدوق في هذا الاختيار، وكان هذا سبب هلاكه في النهاية .

الفصل الثامن

من وصلوا إلى الإمارة بالجريمة

وحيث إنه لا تزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة لا صلة بين أي منهـا وبيـن الحظ أو القدرة بتاتًا، فيجـب ألا نغض الطرف عنهما، مـع أنه يمكن مناقشـة طريقـة منهما بصورة أكثر تفصيـلًا لو كنا نعالج موضـوع الجمهوريـات . وهاتـان الطريقتـان هما أن يصـل الفرد إلى الإمارة بوسائل خاصة خبيثة أو شريرة، أو حينما يصبح مواطن عادي أميـر بلـده بموافقـة أقرانه المواطنين. وسـوف أضرب عنـد الحديث عـن الطريقة الأولى مثالين؛ أحدهمـا قديم، والآخر حديث، من دون الدخـول أبعد من ذلك في مزايا هذه الطريقـة؛ لأني أرى في المثالين الكفاية لمن يضطر إلى محاكاتهما.

ارتفـع أجاتوكليس Agathocles الصقلي إلى عرش صقلية، لا من بين العامة فحسب، بل من أحقر مكان وأوضعه. كان أبوه صانع فخار؛ فعاش أجاتوكليس عيشة تميزت في جميع مراحل حياته بأقصى صور الشـر، إلا أن شره كان مصحوبًا بتلك الحيوية في الذكاء والبدن حتى إنـه حيـن التحـق بالجنـديـة تقلب فـي رتبها إلـى أن وصل إلـى رتبة البريتور Praetor في سيراقوزة. وحين عين فيها، وعزم على أن يصبح أميرًا،ويحافـظ بالشـدة ومن دون معونة الآخرين علـى ما قد أناله إياه الدسـتور كاشـف هملقار القرطاجنـي Hamilcar بخططه، وكان هذا

يحارب بجيوشه في صقلية، ودعا ذات صباح الشعب والسناتو في سيراقوزة، كما لو كان عليهم أن يتداولوا في أمور مهمة للجمهورية. وعندما أعطيت إشارة خاصة ذبح جنده جميع أعضاء السناتو وأغنى أغنياء المدينة. وبعد المذبحة احتلها، وقبض على زمام الحكم من دون أي محاولة مدنية. وعلى الرغم من أن القرطاجنيين هزموه مرتين، وحاصروه حصارًا تامًّا، إلا أنه استطاع لا أن يدافع عن المدينة فحسب، بل أن يترك قسمًا من قواته للدفاع عنها، ويغزو إفريقيا بالقسم الآخر، ثم يفك حصار سيراقوزة في وقت قصير، ويضيق الخناق على القرطاجنيين حتى اضطروا إلى الاتفاق معه، ويظلوا قانعين بملك إفريقيا ويتخلوا عن صقلية لأجاتوكليس. وعلى ذلك فإن كل من ينظر إلى أعمال هذا الرجل وخصاله فإنه يرى قليلًا منها يمكن أن ينسب إلى الحظ، إذا وجدت بينها أمور من ذلك؛ فوصوله إلى الإمارة، كما أوضحنا، لا يعزى إلى مساعدة غيره له، وإنما إلى تقلبه في رتب الجندية، وتقدمه فيها، وتكبده آلاف العقبات والأخطار، ثم محافظته عليها فيما بعد بوسائل كثيرة جدًّا باسلة وخطرة. فلا يمكننا أن ندخل في باب القدرة ذبح أقران المرء من المواطنين، أو الغدر بالأصدقاء، أو عدم الوفاء، أو التجرد من الشفقة والتدين. وقد يصل الإنسان بهذه الوسائل إلى السيادة بالفعل، بيد أنها لا تكسبه مجدًا. لأننا لو نظرنا إلى قدرة أجاتوكليس على مواجهة الأخطار من دون وجل والغلبة عليها، وعظمة روحه في تحمل العقبات والتغلب عليها، فإن المرء لا يرى سببًا لكي يضعه في مرتبة دون مراتب أعظم الرؤساء شهرة. ومع ذلك فإن قسوته البربرية، وعدم رقة شمائله، وألوان وحشيته التي لا تحصى، لا تجيز جميعًا لنا بأن ندعوه بين أشهر الرجال. ونحن لا نستطيع أن ننسب إلى الحظ أو القدرة ما قد أنجزه من دون أي منهما.

وتـرك أليڤروتـو دا فرمـو Oliverotto da fermo فـي أيامنـا، وفي عهد الإسـكندر السـادس، صبيًّا صغيـرًا يتيمًا، يكفله خالـه جيوفاني فوجليانـي Giovanni fogliani الذي نشـأه وألحقه في شـبابه المبكر بالجنديـة تحـت قيادة باولـو فيتللـي Paolo Vitelli لكي ينـال مركزًا عسـكريًّا ممتازًا وقد تدرب في هذه المدرسـة غير الهينة. وعند موت باولو حارب أليفروتو تحت قيادة شقيقه فيتللوتسو Vitellozzo حتى أصبـح فـي زمن وجيـز قائدًا من قـواد قواتـه؛ وذلك لذكائـه العظيم، ونشـاطه العقلي والبدنـي، ولكنه حين عَدَّ البقاء تحـت إمرة غيره من شـأن العبيد، عقـد العزم على احتلال فرمو بمسـاعدة فيتللي وبعض أبنـاء فرمـو الذين فضلـوا عبودية وطنهـم على حريتـه. ولذلك كتب إلـى خاله جيوفاني فوجليانـي عن رغبته في الحضور إلى فرمو لرؤياه وزيارة وطنه لطول غيابه عنه، وهو يستطيع، في الوقت نفسه أن يفتش، على قدر الإمكان، أملاكه. ولما كان أليڤروتو قد جد ليكسب فحسب الشرف، فلكي يعلم أبناء وطنه أنه لم يضيع وقته سدى فهو يرغب في أن يحضر إلى فرمو مكرمًا يرافقه مائة من الفرسـان والأصدقاء والأتباع، ورجـا خالـه قائـلًا: إن من دواعي سـروره أن يصـدر جيوفاني أوامره لكي يستقبله المواطنون في فرمو بحفاوة، وفي هذا الأمر أيضًا تكريم لخاله فهو أستاذه. ولـم يقصر جيوفاني في القيام بأي حفاوة لائقة بابن أخته، وأصدر أوامره بأن يستقبلوه بالتكريم، وأنزله في دوره الخاصة. ثـم انتظـر أليڤروتو بضعة أيـام ليهيىء جميع ما يلـزم لخططه الأثيمة، ودعـا جيوفانـي فوجلياني وجميع وجوه فرمو إلـى مأدبة كبيرة. وبعد تنـاول الطعـام والترفيه المألوف في مثل هـذه الولائم تطرق أليڤروتو في الحديث بدهاء إلى موضوعات معينة مهمة للمناقشـة، بأن تحدث

عن عظمة البابا الإسكندر، وعظمة ولـده قيصر، وأعمالهما، وعندما أخـذ جيوفاني والآخرون يردون على الحديـث نهض فجأة قائلًا بأن الـكلام في هـذه الأمور ينبغـي أن يكون في مكان خاص، وانسـحب إلى غرفة تبعه إليها جيوفاني وجميع المواطنين الآخرين. ولم يكادوا يجلسـون حتـى هجـم الجند عليهـم من كمينهـم، وذبحـوا جيوفاني وجميع الآخرين. وبعد هذه المذبحة امتطى أليڤروتو جواده، وحاصر شـيخ القضاة في قصره حتى اضطر الشـعب هلعًا إلى طاعته وتكوين حكومة جعل نفسـه أميرها. ولما كان قـد قضى على كل من قد يؤذيه لو لم يرض عنه، قوى مركزه بأنظمة جديدة عسكرية ومدنية، حتى إنه لم يعش هو نفسـه في مدينة فرمو في سلام فحسب، بل أصبح يخشاه جميـع جيرانـه أيضًا، وذلك في بحر العام الذي ولـي فيه الإمارة. لقد كان مـن الصعـب أن ينقلب عهده، شـأنه في ذلك شـأن أجاتوكليس، لـو لـم يدع قيصر بورجـا يخدعه عندمـا ألقى القبض علـى الأورزني والفيتللي في سنجاجليا، كما سبقت الإشارة منذ برهة قصيرة، وحيث أخذه هو أيضًا وشـنقه مع ڤيتللوتسـو الذي كان أسـتاذًا لـه في القدرة والوحشية، وذلك بعد سنة واحدة من اغتياله خاله.

وقـد يعجـب البعـض: كيـف اسـتطاع أجاتوكليـس وغيـره ممن يشـبهون له، مع مـا اقترفوا من ضـروب لا تحصى للقدرة والقسـوة، أن تتوفر لهم السـلامة سـنين عديدة في بلادهم، وأن يحموا أنفسـهم مـن الأعداء في الخارج، ومن دون أن تتآمر عليهم رعيتهم بتاتًا، على الرغـم مـن أن كثيرًا غيرهـم لـم يقدروا البتة علـى أن يصونوا مركزهم فـي زمن السـلم، وهذا لو أننـا أغفلنا ذكر أيام الحـرب غير المأمونة؟ أعتقد أن الأمر يرجع إلى كيفية اسـتغلال الشـدة اسـتغلالًا صالحًا أو سـيئًا؛ فالشـدة الصالحة (لو جاز لنا أن نصف الشـر بالخير) هي التي

قـد تقال عن تلـك الحالات التي تمارس مرة واحدة من أجل سـلامة الأمير، ويسـتغنى عنها فيما بعد بوسـائل أخرى تفيـد الرعية على قدر الإمكان . واسـتخدام الشدة استخدامًا سـيئًا يكون في تلك الحالات التـي، مع قلتها، تزداد مـع الزمن ولا تنقص. إن أولئك الذين ينهجون علـى النهج الأول قـد يعالجون حالتهم بإجراءات معينة، سـواء بعون الله أم بمسـاعدة من البشـر، كما فعل أجاتوكليس. أما غير هؤلاء فمن المستحيل عليهم أن يصونوا أنفسهم.

ومـن هنـا علينـا أن نلاحظ أنـه ينبغي للفاتـح الذي يسـتولي على ولاية جديدة أن يهيىء الأمر لكي يقترف ضروب قسـوته مرة واحدة، حتى لايضطر إلى أن يمارسها كل يوم؛ وذلك لكي يستطيع أن يطمئن الشعب إليه، وحتى يكسبه بجانبه بما ينفعه به، لا بالتغييرات الجديدة التـي يقـوم بها. إن كل من يفعل غير ذلك، جبنًا أو عملًا بمشـورة غير صالحـة، يضطـر دائمًا إلى أن يقف والخنجر في يده، ولا يسـتطيع أن يركن إلى رعاياه بتاتًا؛ لأنهم لا يسـتطيعون أن يطمئنوا إليه بسـبب أذاه الذي يتجدد؛ لأن الإسـاءة يجب أن تكون جميعها دفعة واحدة، حتى إنـه كلما قـل حدوثها قل ضررهـا. أما المنافع فينبغـي أن تعطى قليلًا قليـلًا حتـى يمكـن بصورة أفضـل أن ينعمـوا بها. وعلـى الأمير، قبل كل شـيء، أن يعيش مع شـعبه على وتيرة لا تغيرها الحوادث، سـواء أكان الحظ مواتيًا، أم قلب له الدهر ظهر المجن؛ لأنك لا تكون حين تنبجـس الضرورة فـي الأوقات العصيبة في وقت يناسـب اسـتخدام الشـدة، وما تفعل من خير فلا يعود عليـك بفائدة؛ لأنه يؤخذ على أنه اضطرار ؛ ولن تجني منه أي فائدة كانت.

الفصل التاسع

في الإمارات المدنية

ولكنا نصل الآن إلى الحالة التي يصبح فيها مواطن أميرًا برغبة أقرانه المواطنين، وليس بالجريمة أو العنف الذي لا يطاق؛ وقد تسمى هذه الحالة بالإمارة المدنية. وبلوغ هذه الولاية لا يتوقف بتاتًا على الجدّارة أو الحظ، ولكنه يعتمد بالأحرى على المكر يعينه الحظ؛ لأن المرء يبلغها برغبة الشعب، أو بإرادة الطبقة الأرستقراطية. ففي كل مدينة توجدَ هاتان الجماعتان المتعارضتان؛ والتعارض ناجم عن رغبة الشعب في تحاشي اعتساف الطبقة الأرستقراطية، ورغبة هذه في قيادة الشعب والبطش به، ويترتب على هاتين المصلحتين المتعارضتين في المدينة إحدى نتائج ثلاث: إما حكم مطلق، وإما حكم حر، وإما فوضى . ويصنع الشعب أو الطبقة الأرستقراطية الحكومة الأولى؛ والأمر يتوقف على الفرص النسبية التي تواتي الطرفين. فالنبلاء حين يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحدا من بينهم ويجعلون منه أميرًا؛ ليتسنى لهم في ظل سلطانه أن يحققوا مشروعاتهم الخاصة. والشعب، من ناحية أخرى، عندما لا يستطيع مقاومة النبلاء يسعى إلى أن يرفع من بينه أميرًا يصنعه لكي يحتمي في ظل سلطته. ومن يصبح أميرًا بمساعدة النبلاء يتكبد في المحافظة على سلطانه مشقة أعظم من مشقة من رفعه الشعب إلى الإمارة؛ فحوله كثيرون يعدون أنفسهم أندادًا له، ومن هنا فهو لا يستطيع أن يوجه أو يقود كما يروق له . أما الذي قد ارتفع إلى مرتبة

القيادة بعون من الشعب فيجد نفسه فريدًا، ويلفى الجميع عدا القليل جدًّا مستعدًّا لطاعته . وفضلًا عن ذلك، فإن المعاملة بالقسطاس، ومن غير أن تضر الآخرين، يستحيل معها إرضاء النبلاء، بينما إرضاء العامة بهذه الطريقة أمر هين جدًّا، لأن هدف الشعب أشرف من غرض النبلاء، فهو لا يبغي سوى تجنب البطش، في حين أن النبلاء يرغبون في التعسف. ويجب أن نضيف إلى ما سبق أن الأمير لا يستطيع أن يستوثق من شعب يعاديه؛ وذلك لكثرة عدده. ولن يتسنى له ذلك مع مناوأة الأشراف له؛ فهم قلة. إن شر ما يتوقعه الأمير من الشعب الذي يناوئه هو أن يتخلى عنه، ولكن ما يخشاه من النبلاء الذين يعادونه هو مقاومتهم الناشطة له، فضلًا عن تخليهم عنه. ولما كانوا أبعد نظرًا من الشعب، وأشد مكرًا، فهم دائمًا يخلصون أنفسهم وينضمون إلى من يتوقعون له الغلبة، وذلك في الوقت المناسب. والأمير مضطر، زيادة على ذلك، إلى أن يعيش دائمًا مع الشعب نفسه، بينما يستطيع أن يعيش من دون الطبقة الأرستقراطية عينها؛ فهو الذي في وسعه أن يوجدها ويقضي عليها في أي وقت، وأن يحسن مركزها أو يجردهم منه، وذلك كما يحلو له.

ولكي ألقي على هذا الجانب من حجتي ضوءًا أشد أقول: يجب أن يكون اعتبارنا للنبلاء بأسلوبين مختلفين، أي إما أن يحكموا حكمًا يجعلهم يتوفرون على الاعتماد على حظك، وإما غير ذلك. وأولئك الذين يرتبطون بك هذا الارتباط، ولا يعرفون الجشع، يجب أن تكرمهم، ومحبتهم واجبة. وأولئك الذين يقفون بعيدًا عنك يجب النظر إليهم بطريقتين؛ فهم إما أنهم يفعلون ذلك إحجامًا وجبنًا، وفي هذه الحالة يجب عليك أن تستفيد بهم، وبخاصة أهل الرأي

منهم، حتى إنهم قد يشرفونك في السراء، وليس لك أن تخشاهم في الضراء. ولكن حين لا يترابطون معك؛ وذلك لغرض معين، ولغايات طموحة، فهذه أمارة على أنهم يفكرون في أنفسهم أكثر مما يفكرون فيك. ولذا وجب على الأمير أن يحترس من أمثال هؤلاء الرجال، وينظر إليهم كما لو كانوا أعداء غير ظاهرين سوف يساعدون على هدمه في وقت الشدة.

ولهذا ينبغي للأمير الذي أمره الشعب عليه أن يصون محبتهم له، ومهما يكن من شيء. وسوف يجد هذا أمرًا سهلًا؛ لأن الشعب لا يلتمس شيئًا سوى ألا يسام الظلم. أما المرء الذي أصبح أميرًا بمساعدة النبلاء وضد رغبة الشعب، فيجب عليه أن يسعى أولًا إلى نيل رضاه، وهذا ما سوف يكون سهلًا لو أنه دافع عن الشعب. ولما كان البشر الذين تصيبهم نعم من يتوقعون منه الشر يذكرون هذا المنعم ذكرًا أعظم، فكذلك الشعب يكون أسرع إلى الميل نحوه مما لو كان قد أصبح أميرًا بمساعدتهم له. ويستطيع الأمير أن يكسب رضا الشعب بطرق شتى تختلف باختلاف الظروف، ولا يمكن أن نقدم لها أي قاعدة خاصة بها، ولذا فلن أتحدث عنها، ولن أقول سوى أنه يتحتم عليه أن يكسب صداقة الشعب، وإلا فلن يجد ملاذًا له حين يدق ناقوس الخطر.

صمد نابيس أمير إسبرطة لحصار بلاد اليونان جميعها وجيش روماني مظفر، ودافع عن وطنه ضدهم، وصان ولايته. وحين ظهر الخطر اكتفى بأن يستوثق من فئة قليلة؛ وما كان يكفيه ذلك لو كان الشعب يناوئه. ولا يذكرن أحد الحكمة الدارجة التي تقول: «من يبنِ على الشعب يبنِ على الطين» ، ليعارض بها رأيي في هذا

الصدد؛ لأن تلك الحكمة تصدق حينما يركن فرد عادي إلى الناس ويقنع نفسه بأنهم سيخلصونه إذا بطش به الأعداء أو القضاة. وفي مثل هذه الحالة، غالبًا ما يجد المرء نفسه مخدوعًا، كما حدث في روما لآل جراكي Gracchi، وفي فلورنسا لجورجوسكالي Georgio Scali. ولكن الشعب لايخدع أميرًا يدعم ولايته بهذه الأسس أميرًا شجاعًا باسلًا، لاينخلع قلبه عند الشدائد، ولا يتوانى في إعداد العدد الأخرى، ويستطيع أن يستنهض بقدرته وبوسائله الخاصة كتلة الشعب؛ ومثل هذا الأمير سوف يجد أنه قد أحسن إرساء قواعد ولايته.

ويحدق الخطر عادة بهذه الإمارات حين ينقلب الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مطلق؛ لأن هؤلاء الحكام المطلقين إما أنهم هم أنفسهم الذين يقودون، وإما أنهم يقودون بوساطة ولاة لهم، ومركزهم في الحالة الأخيرة أشد ضعفًا وخطرًا منه في الحالة الأولى؛ لأنهم يكونون تحت رحمة من قد عينوهم ولاة، وهؤلاء يستطيعون أن يجردوهم من ملكهم، سواء بالعمل ضدهم، أم بالخروج على طاعتهم، وبخاصة في وقت الشدة. وفي مثل هذه الأخطار لا يكون الوقت مناسبًا لكي يفرض الأمير سلطانه المطلق فرضًا؛ لأن المواطنين والرعايا لن يكونوا مستعدين لإطاعة أوامره عند هذه الطوارئ، فهم قد ألفوا تلقي الأوامر من الولاة. وسوف يحتاج الأمير دائمًا، في الظروف العصيبة، إلى رجال يستطيع أن يعول عليهم. ومثل هذا الأمير لا يمكنه أن يركن إلى ما يراه في أوقات الهدوء والسكينة، عندما يكون المواطنون في حاجة إلى الإمارة؛ لأن كل فرد يبذل الوعود حينئذ بكثرة، ويكون مستعدًّا لافتداء الأمير بحياته؛ فالموت بعيد. ولكن في ساعة الشدة حين تحتاج الدولة إلى المواطنين، لن

يجـد منهـم وقتئذ إلا القليل . وإنها لتجربة شـديدة الخطر، ولا يمكن أن تقع إلا مرة واحدة.

ولـذا يجب على الأمير العاقل أن يبحث عن وسـائل يكون رعاياه بهـا فـي حاجة إلـى حكومته دائمًـا، وفـي كل ظرف ممكـن، وحينئذ سوف يكونون على الدوام أوفياء له.

الفصل العاشر

كيف يجب قياس قوة الإمارات كافة؟

وثمة نقطة أخرى من الضروري أن ننظر إليها ونحن نبحث في صفات هذه الإمارات، ألا وهي: هل للأمير مثل هذه الولاية التي تجعله قادرًا على أن يصون نفسه بمفرده عند الحاجة، أو هو في حاجة إلى حماية غيره دائمًا؟ ولكي أوضح هذه النقطة توضيحًا أفضل أقول: إنني أعتبر أولئك الذين يستطيعون صيانة أنفسهم بمفردهم هم من في وسعهم أن يجندوا جيشًا كافيًا لوفرة المال والرجال، وألا يقهرهم أي مغير عليهم؛ وَأَعُدُّ الذين في حاجة إلى غيرهم دائمًا هم أولئك الذين لا يقدرون على أن ينازلوا أعداءهم في الميدان، ولكنهم يضطرون إلى الانسحاب داخل مدنهم ويدافعون. لقد ناقشنا الحالة الأولى منذ وقت قصير، وسوف نتكلم عنها فيما بعد، حين تسنح الفرصة. وفي الحالة الثانية، ليس ثمة قول سوى أن نستنهض هذا الأمير لتحصين مدينته وإمدادها، وألا يعبأ بما حولها إن كل من حصن مدينته تحصينًا منيعًا، واتخذ لسياسة رعاياه الإجراءات التي رسمناها وسوف نعيد ذكرها فيما بعد يهاجم بإحجام شديد؛ لأن الناس يعافون دائمًا المشروعات التي تنبئهم بمصاعبها ولا يمكن أبدًا أن تبدو مهاجمة أمير له مدينة منيعة، ولا يناوئه شعبه، أمرًا هينًا.

إن المدن الجرمانية حرة، ولا يحيط بها سوى إقليم صغير، وتدين بالولاء للإمبراطور بمحض إرادتها، وهي لا تخشاه أو

تخشى قوة من القوى الأخرى حولها. وهي محصنة تحصينًا يجعل كل طامع فيها يعد إخضاعها مهمة شاقة وصعبة المراس؛ فلها الخنادق اللازمة، والحصون الضرورية، والمدفعية الكافية، وتحتفظ دائمًا في مخازنها العامة بما يسد حاجتها عامًا كاملًا من الغذاء والشراب والوقود. وبالإضافة إلى ذلك، فإن لديها الوسائل الكافية لأن تقدم للطبقات الدنيا العمل لسنة كاملة في هذه الأعمال التي تكون عصب المدينة وحياتها، وفي الصناعات التي تعيش منها الطبقات الفقيرة؛ وذلك لكي تحتفظ بالطبقات الدنيا راضية، ومن دون خسارة تصيب الثروة العامة. وما زالت المدن الجرمانية تمجد التدريب العسكري وترفع من شأنه، وتنفذ لوائح عديدة للمحافظة عليه.

ولذا لا يمكن أن يغير أحد على أمير له مدينة حصينة، ويحبه الشعب. ولو فرض أن حدث ذلك فإن المعتدى سيضطر إلى التقهقر كسيف البال؛ لأن أمورًا كثيرة جدًّا في هذا العالم تتغير، ومن هنا يكاد أن يستحيل على أي إنسان أن يستمر عبثًا في حصار مدينة لمدة عام. وعلى أولئك الذين يحاجونني بأن الشعب لن يطيق صبرًا حين يرى العدو خارج المدينة وقد أضرم النيران في أملاكه الخاصة وأحرقها، وأن الحصار الطويل والمصالح الخاصة ستجعله ينسى أميره، أجيب: إن الأمير القوي والشجاع يتغلب دائمًا على تلك المصاعب، تارة بأن يفعم القلوب بأمل الخلاص القريب منها، وأخرى بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو، وثالثة بأن يستوثق بحذق من أولئك الذين يبدون له أصحاب جرأة مفرطة. وفضلًا عما تقدم، فإن العدو بطبيعة الحال يشعل النيران في البلاد في أول وصوله وفي الوقت الذي لا

تزال فيه النفوس ذات حمية، وتتطلع إلى الدفاع عن ذواتها؛ ولذا تظل مخـاوف الأميـر قليلة. لأنه بعد مـرور فترة من الزمـن، وعندما تكون الحميـة قد فتـرت، والدمار قد وقع،وابتلينا بالشـر، وليس ثمة علاج؛ فحينئـذ تصبـح النفوس أكثر اسـتعدادًا للاتحاد مع أميرهـا؛ لأنه يبدو لهـم مدينًا لهم بالمعروف فدورهم قد أحرقت، وأملاكهم قد خربت، في سبيل الدفاع عنه.

إن مـن طبيعة الإنسـان أن النعمة التي ينعم بهـا على غيره تربطه به شـأن تلك التي يأخذها منـه. وبناء عليه؛ فإذا نظـر الأمير الحكيم إلى الأمـور كافة بعين الاعتبار الصحيح فلـن يصعب عليه أن يجعل روح مواطنيـه عاليـة، عنـد بدء الحصـار، وفي إبانـه، لو كان يملـك المؤن والوسائل للدفاع عن نفسه.

الفصل الحادي عشر

في الإمارات الكنسية

ولـم يعد الآن سـوى الحديث عـن الإمارات الكنسـية التي تكون جميع مصاعبها قبل الاسـتيلاء عليها. وهي تكتسـب إما بالقدرة وإما بالحـظ، ولكـن المحافظة عليها لا ترجع إلـى أي منهما؛ لأن التقاليد الدينية القديمة تبقي عليها، ولهذه التقاليد من القوة والخاصية ما يبقي على سـلطان أمرائها مهما كان شـكل سـلوكهم، وصورة حياتهم. إن هؤلاء الأمراء هم وحدهم الذين يملكون إمارات من دون أن يدافعوا عنهـا، ولهم رعايا مـن غير أن يحكموهم، وإماراتهـم لا تؤخذ منهم، مع أنها غير محمية، ورعاياها لايتبرمون منها مع أنهم غير محكومين، كما لا يخطر ببالهم ولا يسـتطيعون أن ينسـلخوا عنهـا؛ ولذلك فهذه هـي الإمـارات الوحيدة السـعيدة الآمنـة. ولكن لما كانـت علل عليا تصونها وترفعها، ولا يستطيع العقل البشري أن يرقى إليها، فلن أقرب الحديـث فيها؛ لأنه رجـم بالظن وحماقة. مع ذلك قـد يوجه إليَّ هذا السؤال: كيف حدث أن نالت الكنيسة هذه السلطة الزمنية الكبيرة، في حين أنه كانت القوى الإيطالية قبل الإسكندر السادس، وليس القوى منها حقًّا فحسـب، بل جميع السـادة والنبلاء، حتى من لا أهمية له لا تقدر سلطتها الزمنية سوى تقدير تافه ، بينما يرهبها الآن ملك لفرنسا، وكانت تسـتطيع أن تطرده من إيطاليا، وأن تهدم البنادقة أيضًا؟ ولهذا السـبب، ولو أن هذا معروف جيدًا، فإني لا أعتبر ذكره أمرًا غير لازم.

كانت هذه البلاد، قبل أن يدخل شارل ملك فرنسا إيطاليا، تحت حكم البابا، والبنادقة، وملك نابولي، ودوق ميلانو، والفلورنسيين. وكان على هذه القوى أن تجعل نصب أعينها هدفين رئيسين. الأول، ألايدخل أجنبي إيطاليا غازيًا، والآخر، ألا توسع حكومة من الحكومات الراهنة أملاكها. وكان البابا والبنادقة من أوائل أولئك الذين يجب الوقوف لهم بالمرصاد. وكان الأمر يتطلب محالفة الآخرين جميعًا لنوقف البنادقة، كما في مسألة الدفاع عن فرارا. ولكبح جماح البابا كان الأمر يستدعي استخدام البارونات الرومانيين؛ وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى حزبين: الأورزني Orsini، والكولونا Colona. ولما كان ثمة قتال مستمر بينهم فقد كانوا دائمًا على أهبة للحرب، تحت ناظري البابا، فأضعفوا البابوية وجعلوها غير وطيدة. ومع أنه كان يظهر من حين لآخر بين الباباوات حازم مثل سكستس Sixtus، بَيْدَ أنه لم يتمكن من التخلص من هذه المتاعب، سواء بحظه أو بقدرته. لقد كان السبب قصر حياتهم. ففي بحر عشرة أعوام، وهي قاعدة لمتوسط حياة البابا، وجد صعوبة عظيمة في قمع ولو حزبًا واحدًا من الحزبين. ولو فرضنا، مثلًا، أن أحد الباباوات أوشك على القضاء على الكولونا، فإن غيره يخلفه ويعادي الأورزني، فينجم عن ذلك أن ينهض الكولونا من جديد، ولا يجد البابا الفرصة للقضاء عليهم.

هذه هي العلة في أن سلطان البابوية الزمني في إيطاليا لم يكن إلا موضع احترام ضئيل. ثم قام الإسكندر السادس، الذي جعلنا نشهد من دون جميع من سبقوه قاطبة، كيف يستطيع البابا أن يسود بالمال والرجال معًا. لقد قام بجميع الأعمال التي قد وصفتها من قبل

حين الكلام عن أعمال الدوق عندما اتخذ من دوق ڤالنتين آلة له، وانتهز فرصة الغزو الفرنسي. وعلى الرغم من أن عظمة الكنيسة لم تكن هدفه، بل أبهة الدوق، فإن عظمة الكنيسة نتجت عما قام به؛ فقد أصبحت بعد وفاة الدوق وريثة لما قدمت يداه. ثم جاء البابا يوليوس الذي ألفى الكنيسة قوية تملك جميع رومانا، والبارونات الرومانيين وقد كسرت شوكتهم، والأحزاب وقد دمرتها شدة الإسكندر. كما وجد الطريق مفتوحًا لكي يجمع الثروة بطرق لم يعرفها أحد قبل عهد الإسكندر. ولم يقف البابا يوليوس عند حد اتخاذ هذه الأساليب فحسب، ولكن تناولها بالزيادة أيضًا. فصمم على أن يكسب بولونيا، ويقمع البنادقة، ويطرد الفرنسيين من إيطاليا. وقد وفق في جميع هذه الحملات. إنه يستحق ثناء أكثر من غيره؛ لأنه قام بكل ما يزيد من سلطان الكنيسة الزمني، لا سلطان أي فرد خاص، وأبقى أيضًا على حزبي الأورزني والكولونا في الحالة التي وجدهما عليها. ومع أنه كان بين صفوفهما زعماء في مقدورهم أن يقوموا بتغيير الأوضاع، فثمة أمران كانا يجعلانهم لا يتحركون. أولهما، قوة الكنيسة التي هلعوا منها. والآخر، أنه لم يكن لهم بالفعل كرادلة يخصونهم، وهؤلاء أصل الاضطرابات بين صفوفهم. لأن هذه الأحزاب لا تستقر أبدًا حينما يكون لها كرادلة؛ فهؤلاء يثيرون الأحزاب في داخل روما وخارجها معًا، ويضطر البارونات إلى حمايتهم. وهكذا تنشأ بين البارونات الفتن، وتقوم الاضطرابات؛ نتيجة لمطامع الأساقفة. ولذا فقد وجد قداسة البابا ليو العاشر Leo X البابوية ذات قوة عظيمة جدًّا، ومن هنا يزكو الأمل في أنه سوف يزيدها عظمة وجلالًا بطيبته وفضائله الأخرى التي لا تعد، إذا كان غيره قد جعلها عظيمة بقوة السلاح.

الفصل الثاني عشر

في الأنواع المختلفة للجندية وفي الجنود المأجورين

والآن، وقد ناقشت مناقشة تامة خصائص هذه الإمارات التي رأيت البحث فيها، ونظرت من ناحية أسباب فلاحها، أو علل سقوطها، وبينت أيضًا الطرق التي قد حاول بها كثير الحصول على مثل هذه الولايات، لا يبقى أمامي الآن سوى أن أعالج بصورة عامة الوسائل الهجومية والدفاعية التي يمكن أن تستخدم في كل منها.

لقد سبق أن قلنا: كم يلزم للأمير أن تكون له دعامات صالحة، وإلا كان القضاء عليه مؤكدًا. إن الدعائم الأولى لجميع الولايات، سواء جديدة أو قديمة أو مختلطة، هي القوانين الصالحة، والأسلحة الصالحة. ولما كان من غير الممكن أن توجد قوانين صالحة حيث لا توجد الأسلحة الصالحة. فسوف أناقش الآن الأسلحة دون القوانين. ولذا أقول: إن الأسلحة التي يدافع بها أمير عن مملتكاته إما أن تكون له خاصة، وإما أسلحة مأجورة، وإما لحلفاء له، وإما أسلحة مختلطة. والأسلحة المأجورة والمساعدة خطرة، ولا فائدة لها. فلو أقام أحد ولايته على الأسلحة المأجورة فلن يقف راسخًا ولا واثقًا؛ لأنها أسلحة مفككة، وذات مطامع، وبلا نظام عسكري*، ولا عهد لها، وذات جسارة بين الأصدقاء، وجبانة أمام الأعداء، ولا توفي بأي عهد مع الناس، ولا يؤجل خرابها سوى إغارة العدو. هم يسلبونك

---

* المراد هنا الضبط والربط في اصطلاحاتنا العسكرية.

في السلم، والعدو يقوم بذلك في الحرب. وعلة هذا أنه لا يدفعهم حب ولا دافع آخر، سوى الأجر الزهيد، إلى أن يبقوا في ساحة القتال؛ وهذا لا يكفي لأن يجعلهم مستعدين لأن يموتوا دفاعًا عنك. هم يرغبون تمامًا في أن يكونوا جنودك طالما لا تقوم أنت بحرب، وحين تأتي فإما أن يفروا، وإما أن يتسللوا سريعًا ومعًا. وينبغي ألا أجد عناء كبيرًا في التدليل على ذلك ما دام خراب إيطاليا الراهن لا يعزى الآن إلى أي أمر آخر سوى اعتمادها سنين طويلة على الأسلحة المأجورة. حقًا، ساعد هؤلاء بعض الأمراء على بلوغ السلطان، وظهروا شجعانًا أقوياء حينما تنافسوا فيما بين بعضهم بعضًا، ولكنهم أظهروا عدم جدارتهم حين أتى الأجنبي. ولذلك حدث أن أتيح لشارل ملك فرنسا أن يستولي على إيطاليا «بالطباشير»*. وأولئك الذين يعللون خراب إيطاليا ودمارها بخطايانا صادقون. ولكنها ليست الخطايا التي يعنون، وإنما هي تلك التي ذكرت. ولما كانت هي خطايا الأمراء، فهم أيضًا الذين قد لقوا العقاب.

وسأشرح على وجه أكمل عيوب الأسلحة المأجورة. إن قادتها إما رجال أكفاء وإما غير أكفاء؛ فإذا كانوا أكفاء فإنك لا تستطيع أن تركن إليهم؛ لأنهم يستوحون دائمًا عظمة أنفسهم إما بقمعك أنت سيدهم، وإما بالضغط على غيرك ضد مقاصدك. ولكن إذا كان القائد غير كفء فإنه يدمرك على وجه العموم. وإذا أجابني إنسان بقوله: إن هذه هي حال كل أمير نفسها مع القوات المسلحة، سواء أكانت مأجورة أم غير مأجورة، فإني أقول: إما أن الجيوش يستخدمها أمير وإما جمهورية، وعلى الأمير أن يتولى بشخصه منصب القيادة، ويجب أن ترسل الجمهورية مواطنيها من أجل ذلك؛ وإذا ظهر العجز

* أي من دون أقل عناء.

ممن أرسل ينبغي لها أن تغيره. وإذا كان كفئا قديرًا يجب بالقانون أن نمنعه من أن يتجاوز الحدود المرسومة. وتدل التجربة على أن الجمهوريات المسلحة والأمراء المسلحين هم فحسب الذين يتقدمون تقدمًا عظيمًا، بينما القوات المأجورة ليست غير أذى، وأن الجمهورية المسلحة أيضًا تخضع لحكم مواطن من أبنائها بصعوبة أكبر منها في جمهورية جيشها من قوات أجنبية.

كانت روما وإسبرطة مسلحتين تسليحًا قويًّا، وحرتين لقرون عديدة. ونعم السويسريون بالحرية التامة، وكانوا مسلحين تسليحًا قويًّا. ولدينا مثال للجيوش المأجورة في العصور القديمة وهو القرطاجنيون الذين بطش بهم جنودهم المأجورون بعد نهاية أول حرب لهم مع الرومانيين، وفي الوقت نفسه الذي كانت القيادة ما تزال فيه لأبناء قرطاجنة. ولقد جعل أهل طيبة فيليب المقدوني قائدًا لقواتهم عقب موت إبامينونداس Epaminondas ؛ وبعد أن تم له النصر جردهم من حريتهم . ولما قضى الدوق فيليب نحبه، استأجر أهل ميلانو فرنتشسكو سفورتسا لمحاربة البنادقة، ولما تغلب عليهم في موقعة كاراڤاجو Caravaggio تحالف معهم لكي يقمع أهل ميلانو، وهم الذين كان يعمل عندهم . لقد عمل أبوه في خدمة جوهانا ملكة نابولي ، وتركها فجأة وهي عزلاء، فاضطرت إلى أن ترتمي بين أحضان ملك الأراجون حتى لا تفقد المملكة. ولو قيل إن البنادقة والفلورنسيين قد وسعوا ممتلكاتهم، في الأيام التي خلت، بالقوات المأجورة من دون أن يجعل قوادهم من أنفسهم أمراء عليهم، ولكنهم دافعوا عنهم، أجيب :إن الفلورنسيين قد حباهم الحظ في هذه الحالة؛ لأن بعض القواد الأكفاء الذين كان يمكن أن يخشوا جانبهم لم يقوموا بغزو، ولقي بعض آخر معارضة، ووجه الباقي منهم

مطامعـه وجهة أخرى. إن الذي لم يقم بغزو هو السيرجون هوكوود Sir john Hawkwood، ولا نستطيع أن نحكم على ولائـه مادام لم يعرف الظفر. ولكن سوف يعترف كل إنسان بأنه لو كان قد قام بفتح فلربما وقعت فلورنسا تحت رحمته. وكان البراتشسكي Bracceschi ضد سفورتسا الأب على الدوام، وهؤلاء كانوا بعضهم لبعض عقبة متبادلة. ووجه فرنتشسكو أطماعه إلى لومبارديا، وبراتشو Braccio إلى الكنيسة ومملكة نابولي.

ولننظر إلى ما حدث منذ مدة وجيزة. عين الفلورنسيون باولو ڤيتللي Paolo Vitelli قائدًا لهـم. وهو رجل حكيم لدرجة عظيمة، ارتفع إلى أسمى مراتب الامتياز من مرتبة عادية. ولا ينكر أحد أنـه لو كان قد استولى على بيزا؛ لتعين على فلورنسا أن تهتم اهتمامًا بالغًا بالإبقاء على صداقته؛ لأنه لو كان قد حارب في صفوف أعدائهم فلربما عدموا سبيلًا لمقاومته، ولو أبقوا عليه لاضطروا إلى الخضوع له. أما إذا نظر المرء إلى التقدم الذي أحرزه البنادقة فإنـه يرى أنهم كانـوا يعملون بثقة وعظمة طالما كانوا يحاربون بقواتهـم الوطنية، حتى إنهم قبل أن يشرعوا في حملاتهم البرية حاربوا ببسالة بأبناء الطبقة الأرستقراطية والعامـة. ولكن حين بدأوا يحاربون في البـر تخلوا عن هذه الفضيلة، وأخـذوا في السـير على التقاليـد الإيطالية. وفي بدء عهدهم بالتوسع البري، لم يكن عليهم أن يخشوا قوادهم كثيرًا؛ فإقليمهم لم يكن واسع الرقعـة، وصيتهـم لم يكن كبيـرًا. ولكن حيـن اتسـعت أملاكهم، كما فعلوا تحت قيادة كارمنيولا Carmagnola، تمثل لهم خطؤهم؛ لأنهم حيـن رأوه من ناحية قويًا جدًا بعـد أن هزم دوق ميلانو. وحين عرفوا، من ناحية أخرى، فتور همته في هذه الحرب، رأوا ألا يقوموا بأي غزو جديـد فيما بعد تحت قيادته. ولـم يكن لهم أن يرغبوا في طرده، أو أن

يستطيعوا ذلك؛ خشية أن يفقدوا ما قد استولوا عليه. فلذا اضطروا إلى إعدامه ليأمنوا جانبه. وحينئذ اتخذوا بارتولوميو دابرجامو Bartolommeo da Bergamo، وروبر توداسان سفرينو Roberto da san Severino، والكونت دي بتليانو Count di Pitigliano وأمثالهم قوادًا لهم، وكانوا يخشون أن تصيبهم من جرائهم الخسارة بدلًا من الغنم، كما حدث فيما بعد في ڤايلا Vaila، حيث خسروا في يوم واحد ما غنموه في ثمانية قرون بشق الأنفس؛ وذلك لأننا لا نحرز من الملك إلا قليلًا تافهًا بالقوات المأجورة في زمن طويل، ولكنا نتكبد بها خسائر مباغتة وعجيبة. ولما كنت قد اقتبست هذه الأمثلة من إيطاليا التي قد حكمتها القوات المأجورة سنين طويلة، فسوف أبحث فيها بصورة أكثر تفصيلًا لكي نستطيع معالجتها معالجة أفضل حين نرى أصلها وتطورها.

يجب أن نفطن إلى أن إيطاليا كانت في هذه الأيام الأخيرة مقسمة إلى ولايات كثيرة، حين بدأت الإمبراطورية في الانحلال السريع وأخذ البابا ينال صيتًا في الأمور الزمنية، وثارت مدن رئيسة كثيرة على نبلائها الذين كان يحبوهم الإمبراطور، ومن هنا كانت تدين لهم بالطاعة؛ ولقد شجعت الكنيسة على هذا الأمر لكي تزيد من سلطانها الزمني . وفي مدن أخرى كثيرة أصبح أحد السكان أميرًا. وهكذا كانت إيطاليا قد سقط جلها في قبضة الكنيسة تمامًا وأيدى جمهوريات قليلة. ولما كان القساوسة وغيرهم من المواطنين لم يعتادوا على حمل السلاح، فقد أخذوا يستأجرون الأجانب كجنود. وأول من أعطى الصيت لهذا النوع من الجندية هو البريجيودا كومو Alberigio de como من أهل رومانا، وبراتشو وسفورتسا اللذان كانا في حينهما أصحاب الكلمة الأولى في إيطاليا، ولقد دربهما البريجيودا كومو مع

غيرهـم. ثم جاء من بعدهـم جميع أولئك القادة الذيـن قادوا جيوش إيطاليا حتى الوقت الحاضر، وكان من نتائج فلاحهم أن تغلب شارل على إيطاليا، وافترسها لويس، وطغى فيها فراندو Ferrando، وأهانها السويسـريون . وكان منهـج هـؤلاء الذي ساروا عليـه أن يزيدوا من نبههـم أولًا بـأن يزعزعوا الثقة في المشـاة. وفعلوا ذلـك لأنه لم يكن لهم وطن، وكانوا يعيشون على ما يكسبون، وقليل من المشاة لا يشهر أمرهـم وهم لا يستطيعون أن يحتفظوا بعدد كبيـر منها؛ ولذا كادوا أن يقتصـروا تمامًا على الفرسـان؛ لأن عددًا قليلًا منهـم يكفي لأن تدفع لهـم أجـور حسـنة،ويخلع عليهم الشّـرف. ولقـد انحـدروا بالأمور إلـى تلـك الحالة التي لا نجد فيها سـوى ألفين من المشـاة بين جيش قوامه عشـرون ألف جندي. وطرقوا أيضًا جميع السبل لكي يخلصوا أنفسهم والجنود من أي مشقة أو خوف، وذلك بأن يكفوها في نزالهم مئونة سـفك دم بعضهـم بعضًا؛ بيد أنهم كانوا يأسـرون الأسـرى من دون أن نتوقـع منهـم أخذ فديـة. ولقد كانوا لا يهاجمـون التحصينات الحربية ليلًا، ولا يغير على الخيام ليلًا أولئك الذين يكونون منهم في داخل الحصون، ولـم يحفروا حول معسكراتهم الخنادق، ولـم يضعوا المتاريس، ولـم يحاربوا في الشـتاء. لقد أجاز قانونهم العسـكري لهم جميـع هذه الأمور، وكان مبتكـرًا، كما قلنا، لتجنب النصب والخطر، حتى إنهم انحدروا بإيطاليا إلى العبودية، وأنزلوها إلى الحضيض .

الفصل الثالث عشر

في القوات المأجورة، والمختلطة، والوطنية

لقد اصطلح على أن قوات أحد الجيران الأقوياء التي يطلب أمير مجيئها لنجدته والدفع عنه قوات مساعدة، وهي عديمة الفائدة كالقوات المأجورة. لقد فعل ذلك في الأزمنة الأخيرة يوليوس حين رأي فشل القوات المأجورة الذريع في حملة فرارا ، ولجأ إلى القوات المساعدة، ورتب الأمور مع فرديناند ملك إسبانيا على أن يساعده بجيوشه. قد تكون هذه القوات صالحة في حد ذاتها، ولكنها دائمًا خطرة بالنسبة إلى أولئك الذين يستعيرونها. فالهزيمة لك إن هي انكسرت، وإن أنت انتصرت ظللت أسيرًا لها. ومع أن التاريخ القديم حافل بأمثلة لذلك، فإنني لن أترك مثال يوليوس الثاني، فهو ما زال حيًّا في الذاكرة. لقد كان الطريق الذي سار فيه أبعد الطرق عن الحكمة، وذلك حين رغب في أن يأخذ فرارا ووضع نفسه بكلها وكليلها داخل نفوذ أجنبي. ولكن أظهر حسن الطالع في هذا المقام علة ثالثة حالت دون أن يحصد آثار سياسته الفاسدة؛ لأن السويسريين ثاروا وطردوا الظافرين حين هزمت القوات التي كانت تساعده في رافنا، وذلك على عكس جميع ما كان يتوقع هو أو غيره، حتى إنه لم يأسره العدو أو القوات التي كانت تساعده؛ وذلك لأنه انتصر بأسلحة أخرى غير أسلحتها. واستأجر الفلورنسيون الذين لم يكونوا مسلحين كلية عشرة آلاف فرنسي لمهاجمة بيزا، وبهذا

الإجراء خاطروا بأنفسهم مخاطرة فاقت غيرها في أي فترة من فترات كفاحهم .وحشد إمبراطور القسطنطينية في بلاد اليونان عشرة آلاف تركي لكي يقاوم جيرانه، وهؤلاء رفضوا الجلاء والعودة بعد الحرب، وكان ذلك بداية استعباد من كفروا بالأمانة لبلاد اليونان.

فليستخدم هذه القوات من لا يرغب في الظفر: فهي أشد خطرًا من القوات المأجورة، وهي آلة الدمار الكامل؛ لأنها جميعًا متضافرة، وتدين بالطاعة لغيرك، بينما تحتاج القوات المأجورة لكي تضرك، وفي حالة ظفرها، إلى وقت أطول، وفرصة مواتية. لأنها جميعًا لا تكون هيئة واحدة، وأنت الذي تستخدمهم وتدفع لهم الأجور؛ ولذلك فإن فئة عينتها قوادًا لا تستطيع أن تستولي في الحال على سلطة تكفي لأن تتمكن من الإضرار بك. وقصارى القول: إن أشد أخطار القوات المأجورة في جبنها وإحجامها عن القتال، ولكن خطر القوات المساعدة في شجاعتها.

ولذلك يتحاشى الأمير العاقل دائمًا أن يستخدم هذه القوات، ويلجأ إلى قواته الوطنية،ويفضل أن ينكسر بها على أن يكسر بقوات غيره، وذلك حين لا يعتبر النصر الذي تكسبه الأسلحة الأجنبية نصرًا حقيقيًّا. ولن أتردد أبدًا في الاستشهاد بقيصر بورجا وأعماله. دخل هذا الدوق رومانا بالقوات المساعدة، فكانت طلائع قواته تتكون تمامًا من جنود فرنسيين، وبهذه استولى على إمولا Imola، وفورلي Forli ولكن حين ظهر أن جانبها لا يؤتمن لجأ إلى القوات المأجورة؛ لأنها أقل خطرًا، واستأجر الأورزني والڤيتللي. ولما تشكك في أمرهم بعد تجربتهم، ووجدهم غير مخلصين وخطرين، بطش بهم وعول على رجاله هو. ويتسنى للمرء أن يرى بسهولة الفارق بين هذه

القـوات إذا نظر في البون بين اسـم الدوق حين كان عنده الفرنسـيون فحسـب، وعندما اضطر إلى أن يعول على نفسه ويعتمد على جنوده. وإننـا نلقـى أن شـهرته كانت تـزداد باستمرار، ولـم يبلـغ احترامه قط درجـة عاليـة جدًّا مثلمـا رأى الجميع أنه سـيد قواتـه الأول والأخير.

ولا أريـد أن أتـرك الأمثلـة مـن تاريـخ إيطاليـا الأخيـر، ولكنـي لاأسـتطيع أن أغفل عن ذكر هيروسـيراقوزة الذي قد تحدثت عنه منذ وقـت وجيـز. حين جعل أهل سـيراقوزة هذا الرجل، كمـا قلت، قائد الجيـش، عـرف في الحال عدم فائـدة ذلك الجيش الـذي كان منظمًا علـى طريقـة قواتنا الإيطالية المأجـورة. ولمـا رأى أن الإبقاء عليه أو الاسـتغناء عنه أمر غير مأمون، قطَّعه إربًـا إربًا، وأخذ منذ ذلك الحين يحارب بأسـلحته، لا بأسـلحة غيره. وأستشـهدُ أيضًا بقصة رمزية من التوراة توضح هذه النقطة توضيحًا جيدًا. لما قدم داود نفسـه لشـاول لكي يذهب وينازل جوليات Goliath بطل فلسـطين دججه بسـلاحه الخاصة حتى يشجعه، ولكن داود وقد جرب السلاح رفضه قائلًا: إنه لا يستطيع أن يحارب به جيدًا؛ ولذلك فضل أن يواجه العدو بمقلاعه وخنجـره . والخلاصة، أن أسـلحة غيـرك إما ألا تكفيـك وتقصر عن النصر، وإما تنقض ظهرك، وإما تشـل حركتك. إن شـارل السـابع أبا الملك لويس الحادي عشـر حين حرر فرنسـا من الإنجليز بشـجاعته الفائقة وحظه السعيد، اعترف بأن من الضروري أن يكون جيش الأمير من القـوات الوطنية، وأدخل في مملكته نظامًا للفرسـان* والمشـاة . ثم ألغى ولده لويس المشـاة، وشـرع يستأجر السويسـريين ، واستمر غيـره في هـذا الخطأ الذي هو علة الخطر الـذي حاق بتلك المملكة،

* فرسان في العصور الوسطى يحملون أسلحة ثقيلة. (المترجم).

كما يمكن أن يشاهد الآن. وفرنسا حين أشهرت أمر السويسريين بهذه الصورة وألغت المشاة، وجعلت فرسانها تحت رحمة العون الأجنبي، أفلت عزم جميع قواتها. لأنها، وقد اعتادت على أن تحارب مع قوات سويسرية، أصبحت تعتقد أنها عاجزة عن الغزو من دونها، ومن هنا حدث أن أصبحت قوة الفرنسيين غير كافية لمقاومة السويسريين، ولا يخاطرون بحرب ضد غيرهم من دون عون هؤلاء. وهكذا أصبحت جيوش الفرنسيين من النوع الخليط؛ جزء منها مأجور، وجزء منها وطني. وإذا تناولنا هما معًا فإن هذا الخليط يفوق بدرجة كبيرة الجيوش التي تتكون كلها من القوات المأجورة، أو من القوات المساعدة، غير أنه دون القوات الوطنية الخاصة إلى حد كبير.

ولعل في هذا المثال الكفاية؛ لأن مملكة فرنسا لو حاولت المحافظة على التنظيم العسكري لشارل، أو طورته، لظلت منيعة الجانب. ولكن البشر مع عوزهم في الحكمة يبدءون أمورًا جديدة، وحين يجدون أول طعم لها طيبًا لا يدركون ما فيها من سم، كما سبق أن بينت في صدد الحميات غير المستقرة.

ولذا كان الأمير الذي لا يعرف في إمارته الأخطار وهي في دور ظهورها أميرًا غير حكيم في حقيقة الأمر؛ وهذه الحكمة لا توهب إلا للقليل من الناس. وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى العلة الأولى لسقوط الإمبراطورية الرومانية فإننا نردها إلى مجرد استئجارهم القوات المأجورة من الغوت لأننا نلفى قوة الدولة الرومانية وقد أخذت في الضعف منذ ذلك التاريخ، وتضاف جميع قدرة الرومان هذه إلى الغوت.

وعلى ذلك أختم حديثي بأن أقول: لا سلامة لأمير من دون قواته الوطنية، ومن دونها يتوقف مصيره على الحظ تمامًا، ما دام لا يملك وسيلة للدفاع يوثق بها حين تضطراب الأمور. لقد ذهب الحكماء دائمًا وقالوا: «لا شيء عند البشر مزعزع ولا يدوم مثل ولايات دعامتها الشهرة وليست قوتها الخاصة . إن قوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا وإما من المواطنين، وإما من أتباعه هو، وجميع ماعدا هؤلاء أجير ومساعد. ومن اليسير معرفة طريقة تنظيم المرء لجيوشه الوطنية لو أننا درسنا مناهج الأمراء الأربعة التي سلف ذكرها، ونظر المرء بعين الاعتبار إلى كيف نظم فيليب، أبو الإسكندر الأكبر، وكثير من الجمهوريات والحكام المطلقين قواتهم. وبعد هذه الأمثلة لسنا في حاجة إلى أن نعالج الموضوع بالتفصيل.

الفصل الرابع عشر

واجبات الأمير فيما يتعلق بموضوع فن الحرب

ولـذا ينبغي للأمير ألا تكون له غاية ولا فكرة، ولا يتخذ لدراسـته موضوعًا آخر، سـوى الحـرب، وتنظيمها، ونظامها؛ لأن هذا هو الفن الوحيـد الـلازم لمن يقود، ولـه من المزية مـا يكفـل المحافظة على أولئـك الذين ولـدوا أمراء؛ فضلًا عن أنه يعيـن غالبًا الرجال العاديين حتـى يبلغوا مرتبة الإمـارة، ويرى المرء من ناحية أخـرى، أن الأمراء يفقدون ولايتهم حين يفكرون في الترف أكثر من الأسـلحة. إن العلة الأولـى لضيـاع الولايات هي احتقار هذا الفن، وطريقة كسـبها تكون في حذقه.

لقد أصبح فرنتشسـكو سفورتسا بحسن تسـلحه دوق ميلانو، بعد أن كان فردًا عاديًا. وانحدر أبناؤه بعزوفهم عن نصب الحرب ومشقته إلى أشـخاص عاديين بعد أن كانوا أدواقًا؛ لأن من بين مسـاوئ عدم التسـلح الأخـرى التـي تنجم عنه أن يجعـل المرء مـزدرى، وهذا أمر مـن الأمـور التي يجـب أن يقي الأمير نفسـه شـرها، وسنشـرح ذلك فيما بعد. وشـتان ما بين رجل مسـلح ورجل أعـزل، مهما كان الأمر. فليـس بمعقـول أن نتوهـم أن رجلًا مسـلحًا يطيع راغبًـا رجلًا أعزل، أو أن أي رجـل أعزل يسـلم بين أتباع مسـلحين. ومن المسـتحيل أن يعمـل الاثنان معًـا في وئام؛ لأن أحدهما مزدرى، والآخر شـاك. ولذا كان مـن غيـر الممكن لأميـر يجهل الشئون الحربية أن يوقـره جنوده،

أو أن يكونـوا محـل ثقتـه، فضـلًا عن المصائـب التي سـبق ذكرها منذ وقت قصير.

ولـذا ينبغـي للأميـر ألا يـدع التدريـب العسـكري يغيب عـن باله وخاطـره، وأن يتمرن عليه في زمن السـلم أكثر منه في وقت الحرب؛ وهذا ما يستطيع أن يصنعه بطريقتين: الأولى عملية، والأخرى نظرية. فمن الناحية العملية، يجب، بجانب تنظيم رجاله وتدريبهم، أن يشغل نفسه بالقنص باستمرار، وبهذا يعوِّد بدنه على المشاق، وهو في نفس الوقت يـدرس طبيعة البلاد انحدار الجبال، وانفراج الوديان، ومواقع السـهول، ويفهـم طبيعة الأنهار والمسـتنقعات؛ وعليـه أن يتوفر على جميـع هذه الأمور لدرجة كبيرة. ولهـذه المعرفة فائدتها من ناحيتين. فالأولـى، أن يـدرس المرء العلم ببلاده، ويتسـنى له أن يعرف بصورة أفضـل كيـف يدافع عنهـا. والأخـرى، أن يسـتطيع أن يفهم في يسـر أي مـكان آخر قد تلـزم ملاحظته، وذلك عن طريـق المعرفة والخبرة اللتيـن يكتسـبهما في إقليمه هو، حتى إنه يقدر على أن يصل بسـهولة من معرفة البلاد في إقليمه إلى معرفة الأقاليم الأخرى . ويعوز الأمير الـذي يفتقـر إلى هذه المهارة أول لوازم القائـد؛ لأن هذه المعرفة هي التـي تعلمه كيف يلقى العدو، وكيف يعسـكر، وكيف يقود الجيوش، وكيف يضع خطة المعارك، وكيف يحاصر المدن مظفرًا.

لقـد كان مـن حلـل المديـح الأخـرى التـي خلعها الكتـاب على فيلوپومين Philopoemen أمير الآخيين Achaei أنه لم يكن في وقت السـلم يفكر في شيء سوى مناهج الشئون العسـكرية. وكثيرًا ما كان يقف ويسـأل حين يكـون مع صحبه خارج المدينـة: لو فرض أن كان العـدو فـوق ذلك التل وألفينا أنفسـنا مع جيشـنا، فأينا قـد يكون أمنع

موقعًا؟ كيف نستطيع أن نقترب من العدو ونحافظ على نظامنا من دون أن نتعرض للخطر؟ وإذا أردنا التقهقر فكيف ينبغي لنا أن نفعل؟ وإذا تقهقر العدو فكيف يجب علينا أن نتعقبه؟ وكافيلوپومين يضع أمامهم، وهم يسيرون، جميع الاحتمالات التي يمكن أن يتعرض لها جيشه، ويستمع إلى رأيهم، ويدلي برأيه، ويؤيده بالحجج، حتى إنه وهو يقود جيوشه بالفعل لم يتعرض قط لأي حادث لم يكن مستعدًّا له، والفضل في ذلك يرجع إلى هذه التأملات التي لم تنقطع.

ولكن ينبغي للأمير حتى يشحذ ذهنه أن يقرأ التاريخ، ويدرس أعمال العظماء، ويرى كيف سلكوا في شأن الحرب، ويفحص أسباب انتصاراتهم، وعلل هزائمهم؛ لكي يحذو حذو الظافرين، ويتحاشى هزيمة المقهورين، وذلك لكي يسير، أولًا وقبل كل شيء، على الدرب الذي سار فيه بعض الرجال في الماضي، الذين قد اتخذوا قدوة لهم عظيمًا كان موضع ثناء كبير، وتمجيد عظيم، ووضعوا أعماله وأفعاله نصب أعينهم على الدوام؛ فكما يقولون: قلد الإسكندر الأكبر أخيل Achilles وقيصر Caesar الإسكندر، واقتدى سكيبيو Scipio بقورش. وكل من يقرأ حياة قورش التي كتبها إكسنوفون xenophon يرى كيف قلد سكيبيو في حياته قورش تقليدًا ماجدًا ، وكيف تحلى بالصفات التي وصف بها إكسنوفون قورش من طهر، ورقة، وحلاوة شمائل، وكرم .

إن الأمير الحكيم ينبغي له أن ينهج على نفس هذه المناهج،ولا يخلد في زمن السلم إلى الخمول أبدًا، ويدأب على الاستفادة منها بمهارة حتى يمكن أن يجده الحظ، حين يتبدل، مستعدًّا لمقاومة ضرباته، وأن يسود وقت الشدة.

الفصل الخامس عشر

فيما يلام عليه الرجال، أو يمدحون له، وبخاصة الأمراء منهم

ولا يبقى الآن سوى النظر فيما هي مناهج الأمير وقواعده فيما يتصل برعاياه وصحبه. ولما كنت أعلم أن كثيرين قد كتبوا في هذا الموضوع، فإني أخشى أن تعد كتابتي غرورًا، حين تختلف عن آراء الآخرين، وبخاصة في هذا الموضوع. ولكن يبدو لي أن الأصح، وأنا أقصد كتابة شيء يفيد الذين يعلمون، أن أصل إلى حقيقة الموضوع الواقعية من دون تخيلها. إن كثيرين قد تخيلوا جمهوريات وإمارات لم تقع عليها عين إنسان، ولم يعرف لها وجود واقعي؛ لأنه شتان ما بين الحياة كما نعيشها والحياة كما ينبغي أن نعيشها؛ ولذا فإن من يترك ما يفعل بالفعل إلى ما ينبغي أن يفعل سوف يعلم أنه يسعى بالأحرى إلى حتفه من دون بقائه. إن المرء الذي يريد أن يحترف الخير في كل الأمور سوف يحزن بين الأشرار، وهم كثيرون جدًّا. ولذا يتحتم على الأمير الذي يبغي المحافظة على نفسه أن يعرف كيف لا يكون خيرًا، وكيف يستخدم هذه المعرفة، وكيف لا يستخدمها، تبعًا للضرورة.

ولذا فإنني حين أترك جانبًا الأمور التي تخص الأمير الخيالي فحسب، وأتكلم عن تلك الأمور الواقعية، أقرر أن ذكر جميع الناس، وبخاصة الأمراء الذين هم أسمى منزلة من غيرهم، يكون لخصال معينة تجر عليهم اللوم، أو تكسبهم الثناء؛ ولذلك يعتبر الناس واحدًا سخيًّا والآخر مقترًا، واحدًا يعطي بسخاء وغيره جشعًا، واحدًا قاسيًا

وغيره شفيقًا، واحدًا لا يحفظ كلمته والثاني جديرًا بالثقة، واحدًا رعديدًا والآخر عنيفًا جريئًا، واحدًا رقيقًا والثاني متغطرسًا، واحدًا فاسقًا والآخر عفيفًا، واحدًا صريحًا والآخر داهية، واحدًا صعب المراس والثاني سهل القياد، واحدًا جادًّا في الأمور والآخر مستهترًا، واحدًا متدنيًا والآخر غير متدين، وهكذا... وأعلم أن كل إنسان سوف يسلم بأن الأمير يكون أكثر استحقاقًا للثناء لدرجة عالية إذا كانت له جميع هذه الخصال السابقة التي تذكر في باب الخير. ولكن لما كان من غير الممكن أن تكون جميعها له، أو يراعيها؛ لأن الظروف البشرية لا تسمح بذلك، كان من الضروري له أن يكون حكيمًا حكمة تكفي لأن يتحاشى شر فضيحة تلك الرذائل التي قد تفقده الولاية، ويقي نفسه، إذا أمكن ذلك، شر تلك التي لن تفقده إياها. ولكن إذا لم يتسن له ذلك يمكنه أن يهملها ويحترس تمامًا من هذه التي قد تسبب هلاكه. إلا أن الواجب عليه ألا يعبأ بتاتًا بالتعرض لفضيحة تلك الرذائل التي من دونها قد تصعب المحافظة على الدولة؛ لأن الإنسان إذا نظر نظرة صحيحة إلى الأمور فإنه يجد أن بعضها الذي يبدو فضائل قد يرمينا في التهلكة لو سرنا عليه، وبعضها الآخر الذي يبدو رذائل تنجم عنه سلامة للإنسان أكبر، وهناءة أعظم.

الفصل السادس عشر

في السخاء والتقتير

والآن حين أبدأ بأولى الصفات التي سبق أن ذكرتها أقول: قد يكون من الأمور الصالحة أن يعتبر الأمير سخيًّا؛ إلا أن السخاء كما يفهمه الخلق سوف يؤذيك؛ لأنه إذا استخدم بمعناه، وبالطريقة الصحيحة، فلن يعلم أحد عن سخائه، وينتج عنه عار الرذيلة المضادة. ولكن المرء الذي يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس يجب ألا يتخلى عن كل نوع من التظاهر الفخم، وإلى مثل هذا الحد سوف يستهلك أمير له هذا الطبع جميع موارده، ويضطر في نهاية الأمر إذا أراد أن يحافظ على اشتهاره بالسخاء إلى أن يفرض على شعبه ضرائب باهظة، ويأخذ إتاوات، ويبذل كل ما في وسعه ليحصل على المال. وهذا ما سوف يجعل رعاياه يأخذون في كراهيته، ويكون قليل الاحترام حين يصبح فقيرًا، حتى إنه حين يكون قد أضر كثيرين بسخائه، ولم يفد به غير قليلين ، يحس بأول اضطراب بسيط يحدث، ويحدق به كل خطر عند الشدائد. فإذا أقر ذلك ورغب في أن يبدل تقليده، فسوف يتهم في الحال بالتقتير.

ولهذا يجب على الأمير الذي لا يستطيع أن يمارس فضيلة السخاء هذه من دون أن تعرف عنه، ألا يخشى، إذا كان حكيمًا، أن يقبل الاشتهار بالتقتير، وسوف يعد سخيًّا أكثر من ذلك على مر الزمن، حين نرى أن اقتصاده جعل دخله كافيًا لكي يستطيع أن يدافع عن نفسه

ضد أولئك الذين يشنون عليه الحرب، وأن يقوم بأعمال عظيمة من دون أن يثقل كاهل شعبه، حتى إنه يصبح سخيًّا حقًّا بالنسبة إلى من لم يأخذ منهم شيئًا، وعدد هؤلاء لا يحصى، ومقترًا بالنسبة إلى كل من لم يعطهم، وهؤلاء قليلون. إننا لم نر في أيامنا عملًا عظيمًا إلا وقد صدر عن أولئك الذين عدوا مقترين، ولقد تحطم غير هؤلاء جميعًا. إن البابا يوليوس الثاني، مع أنه قد استفاد من شهرته بالسخاء لكي يبلغ البابوية، لم يجر وراء هذا الصيت فيما بعد حتى يمكنه أن يقوى على القيام بالحرب. ولقد استمر ملك فرنسا الحالي في حروب كثيرة جدًّا من دون أن يفرض ضريبة استثنائية؛ لأن ما اقتصده في مدة طويلة غطى ما زاد على نفقاته. ولو عرف ملك إسبانيا الحالي بالسخاء لما أمكنه أن يتوفر على هذه الأعمال الكثيرة ويوفق فيها.

ولهذه الأسباب يجب ألا يعبأ الأمير كثيرًا حين يعرف بالتقتير، لو أراد أن يتجنب اغتصاب رعيته، وأن يكون قادرًا على حماية نفسه، وألا يصبح فقيرًا وحقيرًا، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعًا. إن هذا التقتير رذيلة من تلك الرذائل التي تمكنه من الحكم. وإذا قيل: إن قيصر بلغ الإمبراطورية بالسخاء، وكثيرين غيره صعدوا إلى أعلى منزلة بالسخاء، أو بالاشتهار به، فإني أراه قائلًا: إما أنك أمير حديث العهد، وإما أنك تسير على درب الإمارة. وفي الحالة الأولى، يكون هذا السخاء مضرًّا؛ وفي الحالة الأخرى، يتحتم عليك بالتأكيد أن تحسب في عداد الأسخياء. لقد كان قيصر واحدًا من أولئك الذين رغبوا في أن يصبحوا سيد روما. ولكنه لو عاش ولم يعدل في نفقاته بعد أن بلغ مراده فلربما هدم الإمبراطورية وقوضها. وإذا قيل: كان ثمة كثير من الأمراء الذين أتوا بجيوشهم أمورًا عظيمة، وكانوا يعدون

مع ذلك أسخياء إلى أقصى حد، فإني أجيب قائلًا: إما أن الأمير ينفق من ثروته الخاصة ومن مال الرعية، وإما من ثروة الآخرين؛ وفي الحالة الأولى، ينبغي أن يعرف بالحرص في النفقة، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بأن يكون سخيًّا جدًّا. والسخاء ضروري جدًّا لأمير يسير مع جيوشه ويعيش على النهب، والغنيمة والفدية، وينفق من ثروة غيره؛ لأن جنوده لن يسيروا خلفه من دون سخاء. ويمكنك أن تكون بالفعل سخيًّا جدًّا بما ليس ملكًا خاصًّا لك أو لرعاياك، كما كان قورش، وقيصر، والإسكندر؛ لأنك حين تنفق ثروة الآخرين فلن يحط ذلك من سمعتك، بل يعلي من ذكرك، ولا يؤذيك سوى النفقة من ثروتك الخاصة فحسب؛ وليس ثمة ما يحطم نفسه بنفسه كالسخاء؛ لأنه كلما كان المرء سخيًّا فقد القدرة على أن يكون سخيًّا، ويصبح إما فقيرًا حقيرًا، وإما جشعًا بغيضًا، وذلك حتى يتحاشى الفقر. وأهم ما يجب أن يتقي الأمير شره من بين جميع هذه الأمور أن يصبح حقيرًا أو بغيضًا؛ والسخاء يقودك إلى إحدى هاتين الحالتين. ولذلك كان الأحكم أن يشتهر الأمير بالتقتير الذي يجر عليه اللعنة من دون البغضاء، وألا يضطر إلى أن يعرف بالجشع؛ لأن هذا يولد الخزي والكراهية معًا.

الفصل السابع عشر

في الشدة واللين

وفيما إذا كان الأفضل أن يكون الأمير محبوبًا أو مهوبًا

وحين نمضي قدمًا إلى الصفات الأخرى التي سبق ذكرها أقول: يجب على كل أمير أن يرغب في أن يعد رحيمًا لا شديدًا، وأن يهتم بألا يسيء استخدام هذه الرحمة بأي حال. لقد عد قيصر بورجا شديدًا، ولكن شدته هي التي أتت بالنظام والوحدة في رومانا، وجعلت الأمن يستتب فيها، والولاء يسود. وإذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة صحيحة فإننا نرى أن قيصر كان في الواقع أكثر رحمة من الشعب الفلورنسي الذي أتاح تدمير بستويا Pistoia لكي يتحاشى أن يعرف بالشدة. ولذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يتهم بالشدة ما دامت من أجل المحافظة على وحدة رعاياه وولائهم؛ لأنه حين يشتد مع عدد قليل جدًّا يكون أرحم من هؤلاء الذين يتمادون في اللين فيتيحون قيام القلاقل، ومن هنا تراق الدماء، ويحدث النهب. وهذه الأمور كقاعدة تضر جماعة في مجموعها، بينما تنفيذ الإعدام في أفراد لا يؤذي غيرهم. ونجد من بين جميع الأمراء أن الأمير الحديث العهد لا مناص له من الاشتهار بالشدة؛ لأن الولايات الجديدة حافلة بالأخطار دائمًا، ومن هنا يقول فرجيل Virgil على لسان ديدو Dido:

إن الحالة العصيبة حيث شئوني
وعرش غير ثابت الأركان، ودولة في طفولتها،

ـ مثل هذا النوع من الظروف القاسية،
يقسرني على وضع الحاميات في كل اتجاه،
وحماية أملاكي بكل ما أوتيت من سلطان،
وحراسة الشواطئ حراسة غيورة.

ومع ذلك يجب أن يكون حذرًا فيما يعتقد وفيما يقدم عليه، وألا يظهر بمظهر الوجل يخيفه ظله، وأن يسير إلى الأمام في اعتدال وحكمة ولين؛ حتى لا تجعله الثقة المفرطة غير حذر، أو الريبة المسرفة غير محتمل.

ومن هنا تظهر مشكلة المفاضلة بين أن يحب الأمير أكثر مما يهاب وبين أن يهاب أكثر مما يحب. والجواب هو : ينبغي للمرء أن يكون محبوبًا ومهوبًا معًا. ولكن لما كان من الصعب أن تسير الخلتان معًا، فإن مهابته أسلم بكثير من محبته، إذا لم يكن بد من أن تعوزنا خلة واحدة منهما. لأنه يمكن القول عن البشر عمومًا إنهم يجحدون المعروف، ويهذرون في الكلام، ويظهرون غير ما يبطنون، ويقلقون على تحاشي الخطر،ويطمعون في الكسب؛ وطالما تفيدهم فهم أعوانك تمامًا، يفدونك بدمهم ومتاعهم وحياتهم وولدهم، حين تكون الضرورة إليهم بعيدة. ولكن حين تقترب ينقلبون عليك، ويهلك الأمير الذي لم يعول إلا على وعودهم من دون أن يتهيأ بالعدد الأخرى؛ لأن الصداقة التي تكتسب عن طريق الشراء لا عن طريقة عظمة الروح ونبلها تشترى، ولكنها غير مأمونة، ولن تستخدم لمصلحتك عند الطوارئ . إن البشر يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون؛ لأن إلزام الحب الذي

يشـده يقطع في كل فرصة مـن فرص مصلحتهم؛ لأن البشـر أنانيون. ولكن الفزع من العقاب الذي لا يخفق أبدًا يحفظ الخوف ويصونه.

وما زلنا نقول بأنه ينبغي للأمير أن يجعل نفسه مهوبًا بطريقة إذا لم تكسبه الحب فهي تقيه من البغضاء على أي حال؛ لأن الخوف وعدم الكراهية قد يسـيران معًا سيرًا حسنًا، ويصل إليهما على الدوام إنسان يمتنع عن التدخل في ملكية مواطنيه ورعاياه ونسـائهم. وحين يضطر الأميـر إلى أن يعـدم فردًا ما فدعه يفعل ذلك حينمـا يكون هناك تبرير صحيـح له، وعلة واضحة. ولكنه يجب أن يمتنع أولًا عن أخذ ملكية غيره؛ لأن نسـيان البشـر لموت آبائهم أيسـر عندهم من نسـيان ضياع ملكهـم. ثـم إن المعاذيـر أيضًا للاسـتيلاء على ملكيـة لا تعوز الأمير أبـدًا؛ والـذي يأخذ فـي العيش على النهب سـوف يجد دائمًا سـببًا ما لاغتصـاب متاع سـواه، بينما علل الإعدام أكثر ندرة، وتمضي أسـرع من غيرها.

ولكـن مـن الضروري ضـرورة قصـوى ألا يعبـأ الأمير بـأن يعرف بالشـدة حيـن يكون مع جيشـه ويقـود عددًا كبيـرًا من الجنـود؛ لأنه لا يسـتطيع مـن دون هذه الشـهرة أن يحافظ على جيش متحد أو مسـتعد للقيام بأي واجب. إن من بين أعمال هانيبال Hannibal الجديرة الذكر أنـه بالرغـم مـن أن جيشـه كان عرمرمًـا، ويتكون من رجـال من جميع الشـعوب، وكانـوا يحاربـون في بـلاد أجنبيـة، فإنه لم يقـع أي خلاف فيما بينهم، أو ضد الأمير، سـواء في السـراء أم فـي الضراء. ولا يمكن أن يعـزى ذلك إلى غير شـدة هانيبال غير اللينة التـي جعلته، مع قدراته الأخـرى التـي لا تحصـى، عظيمًـا ومهوبًا باسـتمرار عند جنـوده. وما كانـت هـذه القـدرات كافيـة لأن تعطي ذلك الأثـر لو لم يكن شـديدًا.

إن الكتّاب الذين لا ينظرون في الأمور يعجبون من ناحية بأعماله، ويعيبون عليه علتها وهي شدته،من ناحية أخرى.ومن حالة سكيبيو Scipio يظهر صدق القول بأن قدرات هانيبال غير الشدة لم تكن تكفي لأن يأتي بالأعمال التي قام بها. (إن سكيبيو مشهور لا بالنسبة إلى عصره فحسب، ولكن ذكراه باقية في كل عصر). لقد ثارت عليه جيوشه في إسبانيا، لا لسبب غير شفقته المسرفة التي أتاحت لجنوده من الفوضى أكثر مما كان يتفق مع النظام العسكري. ولقد وجه إليه فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus اللوم في السناتو على ذلك وأطلق عليه: «مفسد الجندية الرومانية». لقد دمر لوكرا Locra أحد ضباط سكيبيو فلم يقتص لها، ولم يعاقب الضابط على قحته؛ والسبب ببساطة هو طبيعته السهلة، حتى إن أحد أعضاء السناتو، وقد أراد أن يعذره في المجلس قال: إن هناك رجالًا كثيرين يعرفون بالأحرى كيف لا يخطئون أكثر من معرفتهم كيف يصححون خطأ سواهم. إن هذا الاستعداد كان يمكنه بمرور الزمن أن يطفئ شهرة سكيبيو وعظمته لو دأب عليه في عهد الإمبراطورية، ولكن هذه الخصلة الضارة لم تختف فحسب في عهد السناتو، بل أصبحت مجدًا له.

وعلى ذلك أقول في الختام، فيما يتعلق بمهابة الأمير ومحبته، إن الناس يحبون بإرادتهم الحرة، ولكنهم يخافون برغبة الأمير؛ والأمير العاقل يجب عليه أن يركن إلى ما في سلطانه لا سلطان سواه، وما عليه سوى السعي إلى مجانبة ما يجلب عليه الكراهية، كما أوضحنا.

الفصل الثامن عشر

في الطريقة التي يحفظ الأمراء بها عهدهم

كل امـريء يدري كم يثنى الناس على أميـر يحفظ العهد، ويعيش مسـتقيمًا، ومن غير مكر. ولكن التجربة في أيامنا تدل على أن أولئك الأمراء، الذين أتوا أعمالًا عظيمة هم الذين لم يراعوا الوفاء إلا قليلًا، وهم من اسـتطاعوا أن يشوشوا العقول بالمكر، ومن تمت لهم الغلبة على هؤلاء الذين قد اتخذوا الأمانة قاعدة لهم.

ويجب أن تعلم أن ثمة طريقتين للعراك، واحدة قانونية، والأخرى بالقوة؛ الأولى للبشـر، والأخـرى للحيوانات المفترسـة. ولما كانت الأولـى لا تكفي غالبًا، فيجب أن يلجأ المـرء إلى الثانية. ولذلك كان مـن الضـروري على الأمير أن يعرف معرفة جيدة كيف يسـتخدم كلتا الطريقتيـن. لقد علم الكتاب القدامي وأوحوا بذلك إلى الأمراء، فهم يروون كيف أن أخيل Achilles، وكثيرًا ممن سـواه من أولئك الأمراء القدامي قد أرسـلوا إلى كيرون Chiron لينشئهم تبعًا لنظامه ويربيهم. ويقصـدون مـن صورة هـذا المعلـم ذي النصـف البشـري والنصف الحيوانـي أن يبينـوا أن الواجـب على الأمير أن يعرف كيف يسـتخدم الطبيعتيـن معًـا، وأن واحـدة منهمـا، ومـن دون الأخـرى، لا تـدوم.

ولمـا كان الأمير، لذلك، مضطرًّا إلى أن يعرف جيدًا كيف يسـلك كالحيوان، فيجب عليه أن يحاكي الثعلب ويقلد الأسد؛ لأن الليث لا يسـتطيع أن يحمي نفسـه من الفخاخ، والثعلب لا يقدر على أن يدافع

عن نفسه ضد الذئاب. ولذا يجب على المرء أن يكون ثعلبًا ليعرف الفخاخ، وأني يكون ليثًا ليخيف الذئاب. إن أولئك الذين يرغبون في أن يكونوا أسودًا فحسب لا يفهمون هذا الأمر. ولذا يجب على الحاكم العاقل ألا يحفظ عهدًا يكون الوفاء به ضد مصلحته، وحين تنتهي الأسباب التي جعلته يرتبط به. إن هذا المبدأ قد يكون شرًّا لو كان جميع البشر خيرين، ولكن لما كانوا جميعًا أشرارًا ،ولن يراعوا وفاءهم معك؛ فأنت لذلك في حل من أن تحفظ عهدك معهم. إن الحاكم الذي رغب في أن يظهر عذرًا مموهًا لعدم نجز وعده لم يخفق قط في أن تكون عنده أسباب شرعية لذلك. وهناك عدد لا حصر له من الأمثلة الحديثة لذلك يمكن أن نضربها، وتبين كم مرة انتهكت فيها حرمة السلم، وكم من وعود أصبحت باطلة لعدم وفاء الأمراء بها، وترينا أن هؤلاء الذين قد استطاعوا تقليد الثعلب أحسن تقليد نجحوا أحسن نجاح. ولكن من الضروري أن يكون في وسعنا إخفاء هذا الخلق جيدًا، وأن تصبح مموهًا عظيمًا، وخداعًا كبيرًا؛ والناس من البساطة بحيث إنهم على استعداد لأن يذعنوا للضرورات الراهنة، حتى إن الذي يخدع سوف يجد دائمًا أولئك الذين يجيزون لأنفسهم أن يخدعوا.

ولن أذكر سوى مثل واحد حديث. لم يفعل الإسكندر السادس شيئًا سوى أن غرر بالناس، ولم يخطر له غير ذلك، ووجد دائمًا الفرصة. ولم يبرز عليه إنسان قط في القدرة على إعطاء الضمانات، وتوكيد الأمور بأغلظ الأيمان، ولم يكن ثمة من فاقه في عدم الوفاء بها. ولقد كان يوفق في حيله على الدوام ، ومهما كانت الظروف؛ لأنه فهم جيدًا هذا المظهر للأمور.

ولذلك فليس من الضروري لأمير أن يستحوذ على جميع الخصال التي سبق ذكرها، ولكن من اللازم جدًّا أن يبدوا حائزًا لها . وقد أجرؤ على القول بأن التحلي بها مع مراعاتها على الدوام أمر خطير، ولكن التظاهر بالتحلي بها أمر مفيد. وعلى ذلك، فإن من الخير أن يبدو الأمير رحيمًا، وفيًّا، حلو الشمائل، صادقًا، متدينًا، وأن يكون كذلك أيضًا. ولكن يجب أن يكون عقلك مهيأ لأن تستطيع أن تتغير إلى أضداد هذه الخصال حين تحتاج إلى أن تصبح غير ذلك. ويجب أن يكون مفهومًا أن الأمير، وبخاصة حديث العهد، لا يمكن أن يراعي جميع تلك الأمور التي تعد خيرًا عند الناس؛ لأنه يضطر في كثير من الأحيان إلى أن يأتي أعمالًا ضد الوفاء، وضد الإحسان، وضد حلاوة الشمائل، وضد الدين؛ لكي يحافظ على الدولة. ولذا يجب أن يكون عقله معدًّا لأن يكيف نفسه مع الريح التي تهب، وكما تملي تغيرات الحظ. ويجب، كما سبق أن قلنا، ألا ينأي عما يكون خيرًا، إذا أمكن ذلك، إلا أنه يجب عليه أن يكون قادرًا على أن يقترف الشر إذا اضطر إليه.

ويجب أن يعني الأمير عناية فائقة بألا يخرج من بين شفتيه ما لا يحفل بالخصال الخمس التي سبق أن ذكرتها . وينبغي له أن يظهر لمن يراه، ويبدو لمن يسمعه، متوفرًا على الرحمة، والصدق، والاستقامة، والدين. ولا شيء أشد ضرورة من أن يتظاهر بالخصلة الأخيرة؛ فالناس عامة يحكمون بما يرون بأعينهم أكثر مما يحكمون بما يلمسون بأيديهم؛ لأن كل امرىء يستطيع أن يرى، ولكن قلة قليلة تملك أن تلمس ما أنت عليه، وتلك القلة لن تجرؤ على أن تعارض الكثرة التي يحميها جلال الملك. في أعمال البشر كافة، وبخاصة

أعمـال الأمراء، الغاية تبرر الوسـيلة؛ لأنه لا يمكن نقض هذا الحكم. ولـذا فليهدف الأمير إلـى الظفر بالولاية، والمحافظة عليها، وسـوف يكون الحكم على الوسـائل دائمًا بأنها شـريفة، ويثنى عليها الجميع ، لأن العامة تحكم دائمًا بالمظاهر الخارجية للأشياء، وبنتائج الحدثان؛ ولا يتكـون هذا العالم إلا من هؤلاء. والقليل الذي يكون غير سـاذج ينعـزل حينمـا تجـد الكثرة فـي الأمير شـيئًا يجمعهم حولـه. إن أميرًا معينًا في عصرنا ، ويحسـن ألا نذكر اسـمه، لم يفعل شـيئًا قط سـوى التوصيـة بالسـلام، والدعوة إلـى الوفاء، وهو فـي الحقيقة عدو لدود لهما؛ ولو أنه راعى أيًا منهما لأضاع ذلك دولته، وأخسـره اسـمه، في مناسبات عديدة .

الفصل التاسع عشر

في أنه يجب على الأمير مجانبة أن يكون مُزْدَرَى أو مُبْغَضًا

ولكن لما كنت قد تحدثت الآن عن أهمِ الخصال التي نحن بصدد البحث فيها، فسوف أعالج الآن بالتفصيل وبصورة عامة الخصال الأخرى. يجب على الأمير، كما قررت منذ برهة وجيزة، مجانبة تلك الأمور التي تجعله مُبْغَضًا أو مُزْدَرَى؛ وحين يوفق في هذا الأمر يكون قد قام بدوره، ولن يجد في الرذائل الأخرى أي خطر. وأول ما يجعله مبغضًا، كما قلت، أن يكون جشعًا، وأن يغتصب ملكية رعاياه ونساءهم؛ وهذا ما يجب أن يمتنع عن فعله. وما دام المرء لا يعتدي على ملكية عامة الناس أو شرفهم فإنهم يعيشون راضين، ولن يكون عليه سوى أن يصارع مطامع فئة قليلة، ومن السهل أن يكبح جماحها بطرق شتى، ويصبح الأمير مُزْدَرَى حين يظن به عدم الثبات، والنزق، والتخنث، والجبن، وضعف العزيمة؛ وهذا ما يجب أن يتقى شره اتقاء الربان لصخرة مهلكة. وعلى ذلك، فمن واجبه أن يدأب على أن تظهر أعماله للعيان العظيمة، والقدرة، والجد، والجلد. وليذر ما يقضي به وهو يحكم رعاياه لا يقبل النقض، ويتمسك بقراراته حتى لا يمكن لإنسان أن يفكر في خداعه أو غشه.

إن الأمير الذي يخلق هذا الرأي عن نفسه يفوز بصيت عظيم، ومن الصعب التآمر على امرىء نابه جدًّا، ولن يعتدي عليه معتد في يسر، طالما يعرف عنه أنه قدير، وتجله رعيته؛ لأن الأمير يجب عليه أن

يخشى أمرين: الأول داخلي يتصل برعاياه، والآخر خارجي يتعلق بالقوى الأجنبية. أما الأمر الثاني، فهو يستطيع أن يحمى نفسه منه بالأسلحة الصالحة، والأصدقاء الأوفياء، وهؤلاء لن يعدمهم أبدًا لو كانت عنده الأسلحة الصالحة. أما الأمور الداخلية، فستظل هادئة على الدوام ما لم تجعلها مؤامرة تضطرب، ولم يحدث اضطراب من الخارج. وحتى لو فرض أن سعت قوى خارجية إلى الهجوم عليه فإنه سيصمد دائمًا، ويمكنه أن يحتمل كل هزة، لو أنه حكم وعاش كما قررت، ومثلما بينت بما فعل نابيس الإسبرطي. وأما بالنسبة إلى رعاياه، فما زال عليه أن يخشى أن يتآمروا عليه سرًّا، هذا إذا لم تعمل رعيته بنصائح من الخارج. وهذا ما يمكن أن يُتَقَى شره جيدًا بمجانبة البغض والازدراء، والإبقاء على الشعب راضيًا عنه؛ ومن الضروري نجز هذا الأمر، كما ذكرت بالتفصيل. وإن أنجع علاج لأمير من هذه المؤامرات هو ألا تبغضه كتلة الشعب؛ لأن كل متآمر يعتقد دائمًا أنه سيرضي الشعب باغتيال الأمير. ولكن لو رأي المتآمر أنه حين يفعل ذلك يسيء إلى كتلة الشعب فإنه يخشى القيام بمثل هذا العمل؛ لأن الصعاب التي لابد من أن يواجهها المتآمرون لا تدخل تحت حصر. وتدل التجربة على أن مؤامرات كثيرة جدًّا قد وقعت ولكن القليل منها قد نجح؛ لأن كل من يتآمر لا يستطيع أن يعمل بمفرده، ولا أن يجد شركاء له إلا بين أولئك الساخطين، وسرعان ما تقدم للمتبرم الوسيلة لإرضاء نفسه حين تكشف له عن قصدك؛ لأنه حين يفضح نيتك يمكنه أن يأمل في أن يوفر لنفسه كل شيء يبغيه. وهو حين ينتظر ربحًا معينًا من وراء ذلك، ولا يرى، من ناحية أخرى، سوى أمر مشكوك فيه، محفوف بالخطر، فلابد من أن يكون أحد اثنين: إما أن يكون صديقًا نادرًا لك، وإما أن يكون عدوًّا لدودًا للأمير،

وذلـك إذا وفـى بعهده معك. ولبيان هذا الأمر بإيجاز أقول: لا شـيء من جانب المتآمر يفزعه سـوى الخـوف، والغيرة، والريبة، والعقاب. ومن جانب الأمير نجد أن جلال الحكم، والقوانين، وحماية الأعوان والولايـة تـذود عنه وتحرسـه. وحين نضيـف إلى هذه الأمـور إرادة الشـعب الطيبـة نحـو الأمير يسـتحيل أن يكون لدى أي إنسـان طيش التآمـر عليـه ؛ لأنه بينما لابـد للمتآمر من أن يشـعر بالخوف عامة قبل تنفيذ مؤامرته، فمن الضروري أيضًا أن يشعر بالخوف بعد أن ينجزها؛ فالشـعب عدوه، وعلى ذلك فهو لايسـتطيع أن يأمل فـي أي ملاذ له.

ويمكننـا أن نضـرب أمثلـة لذلـك لاحصر لهـا، ولكني سـأكتفي بمثـل يذكـره آباؤنا. لقـد تآمـر الكنسـكي Canneschi علـى هانيبال بنتيڤولـي Annibale Bentivogli أمير بولونيـا، وجد هانيبال الحالي؛ ولـم يخلـف مـن أقرباء سـوى جيوڤانـي Giovanni الـذي كان طفلًا حينـذاك. ولكـن بعـد الاغتيـال غضـب الشـعب وقتـل الكنسـكي. ولقـد كان الدافـع لـه على ذلك هـو الإرادة الطيبة التـي تمتع بها بيت بنتيڤولـي في ذلك الحين. وقد كانت هذه عظيمة حتى إن أهل بولونيا حين سـمعوا أن فـردًا من أسـرة بنتيڤولي موجود في فلورنسـا، وكان يظـن أنه ابـن حداد، ذهبوا ليحضـروه، ومنحوه حكـم المدينة، وظل يحكمهـا حتـى شـب جيوڤاني وأصبح في السـن المناسـبة ليمسـك بزمـام الحكم، فلم يكن ثمة خليفة لهانيبال يسـتطيع أن يحكم الدولة بعد موته.

وعلـى ذلك فالنتيجة هي أن الأمير في غير حاجة إلى أن يعبأ كثيرًا بالمؤامرات حينما يكون استعداد الشعب نحوه استعدادًا طيبًا، ولكن حين يناوئونه ويشـعرون نحوه بالكراهية؛ فالواجب على الأمير حينئذ

أن يخشى كل فرد، ويخاف كل شيء. إن الولايات المنظمة تنظيمًا صالحًا، والأمراء العقلاء، قد عرفوا وثابروا على ألا يسوقوا النبلاء إلى القنوط منهم، وأن يرضوا الشعب ويبقوا عليه راضيًا؛ لأن هذا من أهم الأمور التي لابد من أن يعالجها أمير.

وفرنسا من بين الممالك ذات النظام والحكم الصالحين في وقتنا الحاضر، وفيها نجد عددًا لا يحصى من التعاليم الصالحة، وعليها تعتمد حرية الملك وسلامته. وأول هذه التعاليم البرلمان وسلطته؛ لأن من أقام تلك المملكة، وقد كان يدري عن مطامع النبلاء الكبار وغطرستهم، عَدَّ من الضروري وضع لجام في أفواههم ليكبح جماحهم. ولما كان يعرف، من ناحية أخرى، الكراهية التي تحس بها كتلة الشعب نحو النبلاء، ودعامتها الخوف، وحين أراد أن يؤمنهم لم يرغب في أن يجعل هذا الأمر من هموم الملك الخاصة حتى يخلصه من السخط الذي قد يتولد بين النبلاء حين يجامل الشعب، ومن تبرم الشعب حين يجامل النبلاء. ولذلك أقام فيصلًا ثالثًا كبح جماح النبلاء على الدوام، وجامل الشعب وهو دونهم، ومن غير مسئولية مباشرة للملك. وما كان في الإمكان اتخاذ أي إجراء أحكم من هذا وأفضل منه، أو احتياط لسلامة الملك والمملكة يفوق ذلك. ومنه نستطيع أن نستخلص قاعدة أخرى جديرة بالمراعاة، ألا وهي واجب إناطة الأمراء تنفيذ الواجبات غير الشعبية بغيرهم، وأن يستخلصوا لأنفسهم الجميل. وختامًا أقول مرة أخرى: على الأمير أن يوقر نبلاء ولايته، ولكن عليه ألا يجعل العامة تناوئه.

وقد يبدو للبعض أننا حين ننظر في مجرى حياة كثير من الأباطرة الرومان وموتهم أنها أمثلة تعارض رأيي، حين نجد بعضًا

منهم وقد عاش دائمًا عيشة النبلاء وأظهروا قوة في الطبع عظيمة، ومع ذلك فقدوا إمبراطوريتهم، وقتلهم رعاياهم الذين تآمروا عليهم. وعندما أرغب في الرد على هذه الاعتراضات فإني أناقش خصال بعض الأباطرة مبينًا أن علة هلاكهم لم تختلف عما قررت، وأنظر أيضًا في الوقت نفسه إلى الأمور التي لابد من أن يلاحظها كل من يقرأ عن أعمال هذه العصور. وأكتفي بتناول جميع هؤلاء الأباطرة الذين تعاقبوا في الإمبراطورية من ماركوس Marcus الفيلسوف حتى ماكسيمينوس Maximinus؛ وهؤلاء هم: ماركوس، وولده كومودوس Commodus، وپرتيناكس Pertinax، وجوليانوس Julianus، وسڤيروس Severus، وولده أنطونينوس Antoninus، وولده كاراكلا Caracalla، وماكرينوس Macrinus، وهليوجابالوس Heliogabalus، والإسكندر، وماكسيمينوس Maximinus، وأول ما يلاحظ أن أباطرة الرومان كانت أمامهم صعوبة ثالثة وهي لزوم تحمل صرامة الجنود وجشعهم، وهذا ما بلغ حدًّا أصبح فيه علة سقوط كثيرين من الأباطرة؛ فقد كان إرضاء الجنود والشعب معًا أمرًا غير مستطاع في يسر، بينما كان على الأمراء غير الأباطرة مناهضة مطامع الطبقة الأرستقراطية وشطط الشعب. لأن الشعب يحب الدعة؛ وبالتالي يجب الأمراء المسالمين، ولكن الجنود يؤثرون الأمير ذا الروح العسكري والأنفة، الصارم الجشع، ويرغبون في أن يمارس هذه الخصال مع الشعب حتى يمكنهم أن يحصلوا على أجور مضاعفة، ويجدوا متنفسًا لجشعهم وصرامتهم. وهكذا حدث أن هلك على حد سواء أولئك الأباطرة الذين لم يعرف عنهم ما يمكنهم، فطرة أو اكتسابًا، من المحافظة على ضبط الطرفين معًا ، وأن العدد الكبير منهم الذي ارتفع إلى الإمبراطورية

وكان حديث عهد بها، وعرف صعوبات هذين الميلين المتعارضين اقتصر على إرضاء الجنود، ولم يفكر في الإساءة إلى الشعب إلا قليلًا. وليس في هذا الاختيار بد عندما يكون الأمراء غير قادرين على مجانبة مقت طرف من الطرفين، فعليهم أولًا أن يحاولوا ألا تمقتهم كتلة الشعب، فإذا لم يستطيعوا نجز ذلك فيجب أن يستخدموا كل وسيلة لكي يفروا من كراهية الطرف الأقوى. ولذا فإن هؤلاء الأباطرة الذين كانوا حديثي عهد، ومن هنا كانوا في حاجة إلى حظوات خاصة، ناصروا الجنود أكثر من أن يناصروا الشعب. وتتوقف فائدة ذلك أو عدمها، بحال ما، على معرفة الأمير لكيفية المحافظة على شهرته الطيبة بينهم. وكانت نتيجة هذه الأسباب أن نهايات ماركوس وبرتيناكس والإسكندر كانت سيئة، فقد كانوا جميعًا متواضعين، محبين للعدالة، أعداء للصرامة، أهل رقة ولطف. ولقد عاش ماركوس وحده عزيزًا، ومات كريمًا؛ لأنه صعد إلى الإمبراطورية بحقه الوراثي، ولم يكن الفضل في ذلك يعود إلى الجيش أو إلى الشعب. وزيادة على ذلك، كان يتحلى بكثير من القدرات التي جعلته موقرًا، وأبقى طوال حياته على الفريقين كل في مكانه لا يتعداه، ولم يكن مبغضًا ولا مزدرى قط. ولكن نصب برتيناكس إمبراطورًا بغير إرادة الجنود، وهؤلاء وقد ألفوا حياة الفوضى في عهد كومودوس لم يستطيعوا أن يسايروا الحياة الشريفة التي أراد برتيناكس ألا يتجاوزوها. ولذلك أصبح بغيضًا. وإلى ذلك يضاف الازدراء لكبر سنه، ومن هنا سرعان ما سقط في أول إدارته.

ومن هنا يظهر أن الأعمال الصالحة تكسب الكراهية كما يكسبها الشر؛ ولذلك فالغالب أن يضطر الأمير الذي يريد أن يحتفظ بالولاية

إلى أن يقترف الشر، كما سبق أن قلت؛ لأنه حينما يفسد أحد الأطراف، سواء الشعب أو الجيش أو النبلاء، أيًّا كان من تعتبره ضروريًّا لك من أجل المحافظة على مركزك، يجب عليك أن تسير على هواه، وتتبع رضاه، وحينذاك تؤذيك الأعمال الطيبة. ولكن لنتحدث عن الإسكندر الذي كانت له تلك الطيبة حتى قيل إن من بين الأمور الأخرى التي يثنى عليه لها أنه لم يعدم فردًا من دون محاكمة عادلة في السنين الأربع عشرة التي حكمها. ومع ذلك اعتبر متخنثًا، ورجلًا أجاز لأمه أن تسيطر عليه، وهكذا تردى في هاوية الازدراء، وتآمر عليه الجيش وقتله.

وحين ننظر بعين الاعتبار، من ناحية أخرى، إلى خصال كومودوس، وسڤيروس وأنطونينوس، وكارا كلا ، وماكسيمينوس، نجد أنهم كانوا قساة جشعين لأقصى حد، ولم يكن ثمة إساءة لكيلا يفرضوها على الشعب حتى يرضوا الجنود، وكانت خواتيمهم جميعًا سيئة، ما خلا سڤيروس. لقد كانت له، على أي حال، هذه القدرات التي مكنته من أن يحكم حكمًا سعيدًا، بأن حافظ على الجنود أصدقاء له، على الرغم من أنه بطش بالشعب؛ وذلك لأن قدراته جعلته أهلًا لإعجاب الجنود والشعب معًا، حتى أصبح الشعب، إلى حد ما، دهشًا مذهولًا له، بينما الجنود يجلونه وهم راضون.

ولما كانت أعمال هذا الحاكم عظيمة وجديرة بمراعاة أمير حديث العهد، فإني سأبين بإيجاز كيف أنه أجاد استخدام خصال الثعلب والأسد، فلابد للحاكم من أن يقلد طبيعتيهما، كما سبق أن قلت، لما كان سڤيروس، الذي كان قائد الجيش في سلاڤونيا، يعرف تراخي الإمبراطور جوليانوس، فقد أقنع القوات بأن من الخير أن يذهبوا

إلى رومـا للقصاص لمقتـل پرتيناكس الذي كان الحـرس الپريتوري قد قتله. وسـار بجيشـه إلى روما تحت سـتار هذا الادعاء، ومن دون أن يكشـف عن طمعه في العـرش، ووصل إلى إيطاليـا قبل أن يعرف أنـه قد تحـرك إليها. وعند وصوله إلى روما انتخبه السـناتو إمبراطورًا بدافـع الخوف، وقتل جوليانـوس. وبعد هذه البداية، لم يبقَ بينه وبين السـيطرة التامة على الإمبراطورية سـوى مواجهة عقبتين؛ واحدة في آسـيا حيث نجرينـوس Nigrinus على رأس الجيوش الآسـيوية وقد أعلن نفسه إمبراطورًا، وأخرى في الغرب حيث كان آلبينوس Albinus الذي طمع في الإمبراطورية. ولما كان يعد إظهار عدائه لهما معًا أمرًا خطرًا قرر أن يخدع آلبينوس الذي كتب إليه برغبته في أن يشاركه فخر اختيار السناتو له إمبراطورًا، وبعث إليه بلقب قيصر، ونودي به شريكًا لسـڤيروس بأن تداول السـناتو الأمر. لقد حمـل آلبينوس هذه الأمور كافـة محمل الصدق، ولكن بعد أن هزم سـڤيروس نجرينوس وقتله، وجعل الأمور تسـتتب في الشـرق، رجع إلى روما، وفي السناتو اتهم آلبينوس بأنه سـعى غـدرًا إلى اغتيالـه، من دون أن يراعـي النعم التي أخذها منه، وقال إنه مضطر لذلك إلى أن يذهب إليه ويعاقبه على هذا الجحود. وحينئذ ذهب لملاقاته، وهناك جرده من ولايته وحياته معًا.

وكل مـن يفحـص أعمال سـڤيروس فحصًا مفصلًا سـيلفاه أسـدًا مفترسًا، وثعلبًا ماكرًا لأقصى حد، وسيجده مهوبًا جليلًا عند الجميع، ولا يبغضـه الجيش؛ ولن يعجب لقدرته، وهو الأمير الحديث العهد، علـى نيـل سـلطان كبير، مـادام ذكـره العظيم حمـاه على الـدوام من المقت الذي يمكن أن يولده جشـعه في نفوس الشـعب. ولكن ولده أنطونينـوس كان رجـلًا صاحب قـدرة فائقة، وخصـال جعلته جديرًا بإعجاب الشـعب، ومحبوبًا كذلك مـن الجند؛ لأنه كان رجل حرب،

وأهلًا لأن يتحمل أشد الصعاب، ينظر شَزْرًا إلى تناول ما لذ وطاب من الطعام، ويستنكف من كل ترف آخر؛ وجميع هذه الخصال جعلت الجيوش كافة تحبه. وعلى أي حال، فإن وحشيته وقسوته كانتا عظيمتين جدًّا، ولم يسمع بمثلهما أحد؛ لأنه قد تسبب في قتل عدد كبير من أهل آلساندرية Alessandria وأهل روما، بعد أن أعدم كثيرًا من الأفراد، فأصبح الناس كافة يمقتونه، ويخشاه أولئك الذين كانوا حوله، حتى قتله قائد لفرقة من فرق المائة وسط جيشه. ومن هنا يجب أن يلاحظ أن هذا النوع من الموت الذي ينتج عن فعل متعمد لرجل وطد العزم عليه لا يمكن أن يتقي الأمراء شره؛ لأن كل من لا يخشى الموت لا يمكن أن يقدم على هذا الأمر. ولكن الأمير في غنى عن الخوف الشديد منه ؛ لأن أمثال هؤلاء الرجال نادرون لأبعد حد، وليس عليه سوى أن يحذر من أن يأتي أي إساءة جسيمة في حق إنسان يستخدمها ضده، أو في حق الذين هم حوله في خدمته، كما فعل أنطونينوس الذي قتل أخًا لقائد تلك الفرقة بوقاحة، وكان يهدده كل يوم، مع أنه كان لا يزال يحتفظ به في حرسه؛ ولقد كان في عمله هذا بلاهة وخطورة كما أثبت الواقع.

ولكن لننتقل إلى كومودوس الذي كان في مقدروه أن يحتفظ بالإمبراطورية في يسر، فقد كان وريثًا لها؛ لأنه ابن ماركوس. لقد كان من الممكن أن يكتفي باقتفاء أثر أبيه حتى يرضى الشعب والجنود معًا، ولكن وقد كانت ميوله صارمة وحشية عمل على مجاملة الجنود وفوضاهم؛ حتى يستطيع أن يمارس جشعه مع الشعب. ومن ناحية أخرى، أصبح حقيرًا في نظر الجنود جراء عدم محافظته على كرامته، وذلك بنزوله في كثير من الأحيان إلى الساحة لينازل المصارعين،

ولأعمال شائنة أخرى قام بها لا تليق بالكرامة الإمبراطورية. ولما كان بغيضًا، من ناحية، ومحتقرًا، من ناحية أخرى، تآمروا عليه وقتل.

وتبقى خصال ماكسيمينوس لتصويرها. لقد كان رجل حرب لأقصى حد. ولما كانت الجيوش قد ضاقت ذرعًا بتخنث الإسكندر التي تحدثنا عنها منذ مدة وجيزة، فقد انتخب بعد موته إمبراطورًا. ولم ينعم بذلك طويلًا؛ لأن أمرين جعلاه بغيضًا وحقيرًا. الأول، أصله الوضيع؛ فقد كان راعيًا في تراقيا Thrace. وكان هذا معروفًا للناس كافة، وسببًا لازدرائه في جميع النواحي. والآخر، أنه أجل عند بدء عهده، الذهاب إلى روما لكي يتبوأ العرش الإمبراطوري، واشتهر بالصرامة الشديدة، وقد اقترف أعمالًا قاسية عديدة بوساطة نواب حكامه Praefecti في روما وفي أنحاء الإمبراطورية الأخرى. ولذلك فإن الاستياء من وضاعة أصله، والمقت خوفًا من وحشيته، دفعا الكافة إلى الحنق عليه، فتآمرت عليه إفريقيا أولًا، ثم السناتو، وجميع شعب روما وإيطاليا فيما بعد، وإلى هؤلاء انضم كذلك جنوده الذين غضبوا لقسوته حين كانوا يحاصرون أخيلية Aquileia، وألفوا حصارها أمرًا عسيرًا؛ وحين رأوا أن له أعداء كثيرين جدًا، لم يخشوه إلا قليلًا، وقتلوه.

ولن أطرق الحديث عن هليوجا بالوس Heliogabalus، وماكرينوس Macrinus، وجوليانوس Julianus الذين بطش بهم بغتة وقد كانوا حقراء تمامًا، ولكن سوف أختم هذا المقال بأن أقول: إن أمراء عصرنا يلقون في ولاياتهم صعوبة أقل بكثير من هؤلاء من حيث اضطرارهم في حكمهم إلى إرضاء جنودهم لدرجة خارقة؛ لأنه على الرغم من أنه يجب عليهم أن ينظروا إليهم بعين الاعتبار الخاص،

فإنه سرعان ما تسوى أي صعوبة؛ لأنه ليس بين هؤلاء الأمراء من يملك جيوشًا مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بإدارة الحكم وحكم مقاطعاتهم كما كانت جيوش الإمبراطورية الرومانية. فإذا كان من الضروري حينذاك أن يكون إرضاء الجنود أمرًا أحرى بهم من إرضاء الشعب، فما كان السبب سوى أن الجنود كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من الشعب. والآن فيما خلا الأتراك ومماليك مصر، إرضاء الشعب أكثر من الجنود ألزم للأمراء كافة؛ لأن الشعب يستطيع أن يفعل أكثر من الجنود. وأستثني سلطان الأتراك؛ لأنه يحتفظ حوله دائمًا باثني عشر ألفًا من المَشاة، وخمسة عشر ألفًا من الفرسان، وعلى هؤلاء تتوقف سلامة المملكة وقوتها. وكان من الضروري له أن يؤجل أي اعتبار آخر حتى يحتفظ بهؤلاء أصدقاء له. وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى مملكة المماليك، فلما كانت بأسرها في أيدي الجنود، فالسلطان ملزم بأن يحتفظ بصداقتهم بغض النظر عن الشعب. وعلينا أن نلاحظ أن ولاية السلطان هذه تختلف عن ولايات الأمراء الآخرين، فهي تشبه ولاية البابا المسيحية التي لا يمكن أن نسميها مملكة وراثية، أو مملكة حديثة العهد؛ لأن أبناء الأمير الراحل ليسوا ورثته، ولكن خليفته في الحكم هو من يقع عليه اختيار أصحاب النفوذ فيها. ولما كان هذا النظام قديمًا، فلا يمكن أن نسميه مملكة حديثة العهد؛ لأنه خلو من الصعاب التي توجد في الإمارات الجديدة. وعلى الرغم من أن الأمير جديد، فإن قواعد هذه الولاية قديمة ومنظمة حتى إنها تتلقاه كما لو كان هو سيدها الوراثي.

ولكن حين نرجع إلى موضوعنا أقول: إن كل من يدرس الحجة السابقة يرى أن أسباب سقوط الأباطرة الذين ذكرناهم كانت إما الكراهية وإما الازدراء، ويلاحظ كذلك كيف حدث أن بعضًا منهم

سار على نهج، وسار الآخرون على نهج غيره، وفي كلا المنهجين وفق بعض، ولم يوفق الآخرون. لقد كانت محاولة برتيناكس والإسكندر تقليد ماركوس محاولة بلا فائدة وضارة؛ لأنهما معًا أميران حديثا العهد، وكان ماركوس أميرًا وراثيًا. وكانت الحال كذلك بالنسبة إلى كارا كلا، وكومودوس، وماكسيمينوس فقد كان تلقيدهم سفيروس مضرًا لهم، ماداموا لا يملكون القدرة الكافية لأن يقتفوا آثاره. وعلى ذلك لا يستطيع أمير حديث العهد أن يقلد أعمال ماركوس في ولايته، كما أن محاكاته لأعمال سفيروس غير ضرورية له، ولكن عليه أن يأخذ عن سفيروس تلك الأمور الضرورية لتأسيس ولايته، وعن ماركوس ما يفيده ويمجده ليحفظ ولاية قد تم قيامها وسلمت.

الفصل العشرون

فيما إذا كانت القلاع والأمور الأخرى التي غالبًا ما يلوذ بها الأمراء مفيدة أو ضارة

لقد ذهب بعض الأمراء من أجل سلامة حكم ممتلكاتهم إلى نزع السلاح من مواطنيهم، وحافظ غيرهم على البلاد التابعة له مقسمة إلى أجزاء، ومنهم من أثاروا العداوات فيما بينها، ومنهم من سعى إلى أن يكسب في جانبه أولئك الذين ارتابوا في أمرهم عند بدء حكمهم، وفئة شيدت القلاع، وأخرى دكتها وهدمتها. ومع أن المرء لا يستطيع أن يقضي بكم محدد بصدد هذه الأمور من دون أن يدخل في تفاصيل الولاية التي سيطبق عليها مثل هذا الحكم، إلا أنني سوف أتحدث عنها بهذه الطريقة العامة كما يتيح الموضوع.

لم يعرف قط أمير جديد نزع السلاح من رعاياه، بل على العكس، كان يسلحهم دائمًا حين يجدهم عزلًا؛ لأنك حين تسلحهم تصبح هذه الأسلحة لك خاصة، ويخلص لك أولئك الذين ارتبت في أمرهم، ويظل من كانوا مخلصين كما هم، ويصبح من كانوا مجرد رعايا لك أنصارًا. ولما كان تسليح الرعية بأسرها غير ممكن، فإنك حين تمنح مزايا حمل السلاح لبعض منها تستطيع أن تعامل سواهم معاملة أسلم؛ ومن شأن هذا الاختلاف في المعاملة الذي يعرفونه أن يجعل رجالك أكثر عرفانًا بجميلك. أما سواهم فسوف يعذرونك عندما يذهبون إلى أن أولئك الذين عليهم واجبات أهم وعندهم

أخطـار أكبر هم الذين يقـدرون بالضرورة تقديـرًا أعظم. ولكن حين تنزع السـلاح منهم فإنك تأخذ في الإسـاءة إليهـم، وتبدو أنك لا تثق بهـم، إمـا لأنهم جبنـاء، وإما لعوز فـي الثقة بهـم، وكلا هذين الرأيين يولـد كراهيتـك في نفوسـهم. ولما كنت لا تسـتطيع أن تبقـى أعزل، فإنـك مضطر إلى أن تلجـأ إلى الجندية المأجورة التي سـبق أن قررنا قيمتهـا. وحتـى لـو فرضنـا أنهـا صالحـة، فلا يمكـن أن تكفـي عددًا لأن تدافـع عنـك ضـد الأعـداء الأقويـاء، وضـد رعاياك المشـكوك فيهـم؛ ولذلـك فـإن رعايـا الأميـر الجديـد في ملـك جديـد يكونون دائمًـا مسـلحين، عنـد الاسـتيلاء عليـه، كما قلـت، والتاريـخ حافل بأمثلة لذلك.

ولكن حين يكسب أمير ولاية جديدة يلحقها بولايته القديمة، فمن الضروري، حينئذ، أن ينزع السـلاح من تلـك الولاية فيما عدا أولئك الذيـن وقفـوا بجانبه عند الاسـتيلاء عليها؛ وحتى هـؤلاء يجب على الأمير حين تلوح الفرصة، وفي الزمن المناسـب، أن يجعلهم ضعفاء متخنثين، وأن يهيئ الأمور حتى تكون جميع أسـلحة الولاية الجديدة في أيدي جنوده الذين يعيشون بالقرب منه في ولايته القديمة.

إن أجدادنـا وأولئـك الذيـن اعتبـروا حكمـاء اعتـادوا أن يقولوا: لزمـت الكتـل السياسـية وسـيلة للسـيطرة علـى بسـتويا Pistoia، والقـلاع وسـيلة للسيطرة على بيـزا؛ ومن أجـل هذا الغـرض أثاروا الخلافـات في بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا ملكها بيسـر. إن هـذا الأمر كان عملًا صالحًا بلا ريب في تلك الأيام حينما كان في إيطاليـا توازن للقـوى، ولكن يبدو لي أنه ليس بفكـرة صالحة للوقت الحاضـر؛ لأني لا أعتقـد أن الأحزاب التي توجد بهـذه الصورة تأتي

بـأي فائـدة، بل علـى العكس، فمـن المؤكد أن تضيع فـي الحال هذه المدن المنقسـمة بهذه الكيفية عندما يدنو العـدو؛ لأن الكتلة الحزبية الضعيفـة تنضم دائمًـا إلى جانب العـدو، وغيرها لن يسـتطيع البقاء.

وأعتقـد أن البنادقـة، تدفعهـم هـذه الدوافـع التي ذكـرت، أثاروا الفرقـة فـي المـدن الخاضعـة لهـم بيـن كتلتـي الجولفييـن Guelf والجبلينييـن Ghibelline. ومـع أنهـم لـم يتيحوا لهـم أن يصلوا إلى حـد إراقة الدماء إلا أنهم شـجعوا هذه الخلافات، حتـى إن أبناء هذه المدن حين ينشـغلون بخصوماتهم الخاصـة لا يعملون ضد البنادقة. وعلى كل حال، فإنهم لم يجنوا أي فائدة من وراء ذلك، كما شـاهدنا عندما قامت فئة من أولئك المواطنين بغتة واستبسلت واستولت على الولايـة، وذلك بعد الهزيمة في ڤايـلا. ومثل هذه الطرائق، فضلًا عن ذلـك، تدعو إلـى الظن بقوة الأميـر؛ لأن هذه الفرقة لن تتـاح أبدًا في حكـم قوي. هـي مفيدة فقط في زمن السـلم؛ لأنه يسـهل على الأمير بهذه الوسيلة أن يحكم رعيته، ولكن حين تأتي الحرب تتضح مغالطة مثل هذه السياسة في الحال.

ولا ريب في أن الأمـراء الذين يتغلبون على الصعاب والمعارضة يصحبـون عظماء؛ ولـذا فإن الحـظ وبخاصـة إذا أراد أن يجعل أميرا جديـدًا عظيمًا، وهو في أمس الحاجة إلى نيل الشـهرة من أمير وراثي يثيـر الأعداء، فيضطر الأمير إلى أن يشـن حروبًـا ضدهم، حتى يكون لديـه سـبب للتغلب عليهـم؛ وبذلك يصعـد إلى أعلى بوسـاطة ذلك السلم الذي قد جلبه أعداؤه له. إن هناك كثيرين يظنون، لهذا السبب، أن الأمير العاقل ينبغي له، حين تواتيه الفرصة، أن يثير العداوة بدهاء؛ حتى يزيد بقمعها من عظمة نفسه.

إن الأمراء، وبخاصة المحدثون منهم، قد وجدوا في أولئك الرجال الذين نظروا إليهم بعين الارتياب في أول عهدهم بالسلطان إخلاصًا أكثر وفائدة أكبر مما وجدوا في أولئك الذين كانوا موضع ثقتهم بادئ الأمر. إن باندولفوبتروتشي Pandolfo Petrucci أمير سيينا قد حكم ولايته بمن ارتاب فيهم أكثر مما حكمها بغيرهم. ولكننا لا نستطيع أن نطنب في الحديث في هذا حيث إنه استطراد في الموضوع. ولن أقول سوى أنه لو كان هؤلاء الرجال الذين كانوا أعداء عند قيام حكم جديد من النوع الذي يحتاج إلى سند للمحافظة على مركزه، فإن الأمير يتسنى له أن يكسب جانبهم بسهولة جدًّا؛ وهم أشد اضطرارًا من غيرهم إلى أن يخدموه بإخلاص؛ لأنهم يعلمون أن من واجبهم أن يبطلوا بأعمالهم الرأي السيئ للأمير فيهم، والذي سبق أن كوَّنه عنهم. وهكذا سوف يستخلص الأمير منهم دائمًا مساعدة أعظم من التي تعود عليه من أولئك الذين يهملون مصالحه وهم يخدمونه؛ لأنهم أكثر اطمئنانًا إليه من غيرهم.

ولكني لن أغفل عن ذكر الأمير الذي أخذ ولاية جديدة بفضل معونة سرية تلقاها من سكانها، ما دام الموضوع يتطلب ذلك، وأقول: عليه أن ينظر جيدًا بعين الاعتبار إلى الدوافع التي ساقت أولئك الذين آثروه بذلك، فإذا لم تكن هي الحب الطبيعي له، بل كانت فقط تبرمهم من الولاية كما كانت ، فإنه سيجد عناء عظيمًا وصعوبة كبيرة لكي يحتفظ بصداقتهم؛ لأن إرضاءه لهم من المستحيل.

وحين نفحص علة ذلك في الأمثلة التي نستخلصها من الأزمنة الحديثة والقديمة نرى أن كسب صداقة أولئك الذين كانوا راضين عن الوضع القديم، ومن هنا كانوا أعداء لنا عند بدء العهد الجديد،

أسـهل بكثير من كسـب صداقة أولئك الذين أصبحوا أصدقاء للأمير وساعدوه على احتلالها؛ لأنهم كانوا ساخطين على العهد القديم.

لقد كان من عادة الأمراء لكي يستطيعوا السيطرة على ولايتهم في سـلام أن يقيمـوا القلاع حتى تكـون بمثابة حكمة وشـكيمة* لأولئك الذين يبيتون لهم شرًّا، ولتكون لهم ملجأ أمينًا ضد الهجوم المباغت. إنـي أوافق على هذه الطريقة لأنها اسـتخدمت قديمًـا. ومع ذلك فقد رأينا نيقولو فيتللي يهدم في عصرنا قلعتين في شيتا دي كاستللو Citta di Castillo لكـي يحتفظ بهذه الولاية، وجيدو بالدو Guid'Ubaldo دوق أوربينـو يدك الحصون كافة فـي ممتلكاته التي كان قيصر بورجا قد طرده منها، وذلك حين رجع إليها ورأى أن ضياع ولايته مرة أخرى أصعـب من دونها منه بهـا. وعند العودة إلى بولونيا اتخذ آل بنتيفولي مثل هـذه الإجراءات. ولذلك فإن فائدة القـلاع تتوقف على العصور التي توجد فيها، فهي إن صلحت من ناحية، أضرت من ناحية أخرى. وعلى ذلك، يمكن مناقشة المشكلة بهذه الصورة: ينبغي للأمير الذي يخاف شعبه أكثر مما يخاف الأجانب أن يشيد القلاع، ولكن على من يخشى الأجانب أكثر مما يخشى الشعب أن يعمل من دونها، إن قلعة ميلانو التي بناها فرنتشسكو سفورتسا قد قدمت، وسوف تقدم، لبيت سفورتسـا متاعب دونها أي اضطراب آخر فـي تلك الولاية. ولذلك فـإن خير الحصـون جميعًا هو ما يؤسـس على حب الشـعب للأمير. فعلى الرغم من أنك قد تملك القلاع، فإنها لن تنقذك إذا كان الشعب يبغضك. فعندها يشـهر السـلاح عليك، ولن تكون ثمـة حاجة له إلى الأجانب ليسـاعدوه. إننا لا نرى فـي أيامنا أن القلاع أفادت أي حاكم

---

* الحكمة (بفتح الحاء والكاف والميم) سيور تحيط برأس الفرس لقيادته والسيطرة عليه، والشكيمة هي الحديدة المعترضة فمه. (المترجم).

سـوى كونتيسـة فورلـي Forli حين قتـل زوجها الكونـت جيرولامو Girolamo (٢١٣). إنهـا اسـتطاعت بفضـل قلعتهـا أن تفـر من قومة الشعب، وأن تنتظر المعونة من ميلانو، وأن تستعيد الولاية. لقد كانت الظروف حينذاك على حالة لا تمكن أجنبيًّا من أن يمد إلى الشعب يد المسـاعدة، ولكن الكونتيسـة لم تجن منها فيما بعـد فائدة كبيرة حين هاجمها قيصر بورجا وكان الشـعب يعاديهـا، وتحالف مع الأجنبي. لقد كان الأسـلم للكونتيسـة من ملك القلاع ألا تكون موضع كراهية الشـعب. ولهذا السـبب فإني أثني على من يقيم القلاع كما أثني على مـن لا يقيمهـا، وألوم أي إنسـان يسـتوثق من القـلاع ولا يهتـم كثيرًا بكراهية الشعب له.

الفصل الحادي والعشرون

كيف ينبغي لأمير أن يسلك لينال الشهوة؟

لا شيء أدعى إلى احترام أمير احترامًا جد كبير مثل الأعمال العظيمة، والخارقة عامة. ولدينا مثال لذلك في عصرنا هو فرديناند ملك آراجون، وملك إسبانيا الحالي. ويمكن أن نطلق عليه أميرًا حديث العهد؛ لأنه أصبح أول ملك في العالم المسيحي بعد أن كان ملكًا ضعيفًا، وذلك لما أصاب من شهرة ومجد. وإذا نظرت إلى أعماله فسوف تجدها جميعًا عظيمة جدًّا، وتلقى بعضها خارقًا للعادة. لقد هجم على غرناطة في أول عهده، وكانت تلك الحملة دعامة مجده. وقام بذلك أولًا وهو خالي البال، ومن دون أن يخشى تدخلًا من أحد، وجعل عقول البارونات في كاستيل تنشغل بهذه الحملة، حتى إنها حين كانوا يفكرون فيها لم يدر بخلدهم تجديد الأوضاع السياسية. وهكذا نال شهرة وسلطانًا عليهم من دون أن ينتبهوا إلى ذلك. لقد استطاع بمال الكنيسة والشعب أن يصون جيوشه، وبتلك الحرب الطويلة أن يضع أسس قوته العسكرية التي جعلته مشهورًا فيما بعد. وبالإضافة إلى ذلك، لجأ إلى الضراوة الدينية حتى يستطيع أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة، وطرد المغاربة من مملكته واجتثهم منها ، وذلك تحت ستار الدين دائمًا؛ وهو في الحقيقة مثل سياسي فذ. ووراء الستار نفسه أيضًا هاجم إفريقيا، وقام بحملته في

إيطاليا، وهجم على فرنسا فيما بعد؛ حتى إنه كان يبتكر باستمرار عظائم الأمور التي جعلت رعاياه لا يقر لهم قرار وفي حيرة من أمره ومشغولين بملاحظة النتائج. لقد كانت هذه الأعمال ينبثق الواحد منها من الآخر، فلم تدع قط فرصة للناس لكي يقر قرارهم ويعملوا ضده.

ومما يفيد الأمير فائدة جلى أن يضرب بعض الأمثلة البارزة لعظمته في الإدارة الداخلية، كتلك التي تنسب إلى برنابو الميلاني. ففي الحياة المدنية يجب على الأمير أن يجد تلك الوسيلة للثواب أو العقاب التي يكثر الحديث عنها، وذلك حين يقوم فرد ما بعمل خارق، سواء أكان خيرًا أم شرًّا. وعليه أن يسعى في كل عمل، أولًا وقبل كل شيء، إلى أن يكسب لنفسه الاشتهار بالعظمة والامتياز.

ويجل الأمير إجلالًا أكبر حين يكون صديقًا صدوقًا، أو عدوًّا لدودًا، أي حينما يعلن من دون تحفظ تأييده لفرد من الأفراد، أو عداءه له. إن هذه السياسة دائمًا أكثر نفعًا من أن يظل على الحياد؛ لأنه إذا أخذت في القتال دولتان متجاورتان فهما إما دولتان يخشى انتصار المنتصرة منهما، وإما غير ذلك. وفي أي من هاتين الحالتين يحسن بك أن تفصح عن موقفك وتعلن الحرب؛ لأنه إذا لم تفصح عن موقفك في الحالة الأولى فسوف تقع فريسة للمنتصر منهما، وذلك يطيب للدولة التي غلبت ويرضيها، ولن يكون عندك سبب لموقفك، أو لديك ما تدافع به عن نفسك. ولن يلقاك أحد؛ لأن كل منتصر لن يبغي أصدقاء يرتاب فيهم، ولم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة. وكل مغلوب لن يلقاك؛ لأنك لم تشهر السلاح وتخاطر بنفسك في قضيته.

لقد أرسل الإيتوليون أنتيوكس إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها؛ وأرسلوا الخطباء إلى الآخيين الذين كانوا أصدقاء الرومانيين

ليشجعوهم على أن يظلوا على الحياد. ومن ناحية أخرى، استمالهم الرومانيون إلى أن يحملوا السلاح بجانبهم. وعرض الأمر على مجلس الآخيين للتداول فيه؛ حيث سعى سفير أنتيوكس إلى أن يستميلهم إلى البقاء على الحياد، ورد السفير الروماني على ذلك قائلًا: «أما ما يقال إنه خير الأمور لدولتكم وأكثرها فائدة لها، فلا شيء أبعد منه عن الحقيقة؛ لأنكم إذا لم تتدخلوا في الحرب فستصبحون فريسة للمنتصر فيها، ولا فضل لكم أي فضل، ودون أن تنالوا أي ذكر».

وما يحدث دومًا هو أن يبغي منك أن تظل على الحياد من لا يكون صديقًا لك أو حليفًا، ويطلب منك من يكون صديقك أن تفصح عن موقفك بأن تشهر السلاح. ويسلك عادة ضعاف العزيمة من الأمراء طريق الحياد لكي يتحاشوا الأخطار القائمة، وغالبًا ما يدمرهم هذا النهج. ولكن حين يعرب الأمير بصراحة عن موقفه ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه، حتى لو كان قويًّا وبقيت تحت مشيئته، فإنه يدين لك بالمعروف، وتكون صداقة بينكما قد قامت. ولا يصل عدم الأمانة بالرجال أبدًا إلى حد أن يبطشوا بك أنت من أحسنت إليهم. وفضلًا عن ذلك، فإن النصر يندر أن يتم بصورة تجعل المنتصر في حالة ينقض فيها جميع نواميس الخير، وبخاصة بالنسبة إلى العدالة. ولكن إذا هزم حليفك فإنك تلوذ به وسوف يساعدك طالما يقدر على ذلك، وتصبحان رفيقين في طالع واحد قد يصعد من جديد. وفي الحالة الثانية، حينما يكون هذا المتحاربان ممن لا تخشى أنت المنتصر منهما من أي ناحية، فما يزال الأحكم بالنسبة إليك أن تنضم إلى واحد منهما؛ لأنك تسير إلى هلاك أحدهما

بمساعدة من كان ينبغي له أن ينقذه لو كان عاقلًا؛ فإذا انتصر فإنه يظل تحت مشيئتك، ومن المستحيل ألا ينتصر بمساعدتك.

وهنا ينبغي لنا أن نلاحظ أن واجب الأمير أن يحذر دائمًا أن يتحالف مع من هو أقوى منه لكي يعتدي على غيره، إلا إذا حملته الضرورة على ذلك كما سبق القول؛ لأنه إذا ظفر بالنصر فيظل تحت سلطانه، وواجب الأمراء أن يتحاشوا ما وسعهم الأمر، أن يكونوا تحت مشيئة غيرهم وإرادته. لقد اتحد البنادقة مع فرنسا ضد دوق ميلانو مع أنه كان في المستطاع أن يتجنبوا ذلك التحالف الذي أفضى إلى دمارهم. ولكن عندما لا يستطيع الأمير مجانبة ذلك، كما حدث في حالة الفلورنسيين حين ذهب البابا وإسبانيا بجيوشهما للهجوم على لمبارديا، فينبغي للأمير حينئذ أن يتحالف للأسباب التي سبق ذكرها. ولا تدع حكومة تعتقد أنها تستطيع على الدوام أن تسير على سياسة سليمة واحدة، فالأولى بنا أن ندعها تعتقد أن جميع السياسات مشكوك فيها. ونجد هذا الأمر في طبيعة الأشياء؛ فإن الإنسان لا يحاول أبدًا أن يتجنب صعوبة من دون أن يرتطم بغيرها؛ ولكن الحكمة في أن تكون قادرًا على معرفة طبيعة الصعاب، وتعتبر الصالح منها أقلها ضررًا.

وعلى الأمير أيضًا أن يكرم المواهب، وأن يؤثر القادرين ويحمي من يبرزون في كل فن. وفضلًا عن ذلك، فواجبه أن يستنهض مواطنيه على ممارسة أعمالهم مطمئني البال، سواء في التجارة، أو في الزراعة، أو في أي صنعة أخرى يعمل الناس بها؛ حتى لا يحجم هذا عن تحسين ما بين يديه خوفًا من أن يؤخذ منه، أو يخشى ذاك الشروع في صنعة خوفًا من الضرائب؛ ولكن ينبغي أن يكافئ كل من

يقوم بهذه الأمور، وكل من يسعى بأي طريقة إلى تحسين حال مدينته أو ولايته.

وبالإضافة إلى ذلك، ينبغي له أن يلهي الشعب بالمهرجانات والمعارض في مواسم السنة المناسبة. ولما كانت كل مدينة تنقسم إما إلى نقابات طائفية وإما إلى قبائل فينبغي له ألا يغض النظر عن هذه الجماعات كافة ويختلط بها من وقت لآخر،ويجعل لهم من نفسه مثلًا للإنسانية والكرم العظيم، ومن دون أن ينزل أبدًا ومهما كان الأمر عن مستوى جلال كرامته، وهذ ما يجب ألا يجيزه أبدًا في أي أمر من الأمور.

الفصل الثاني والعشرون

في أمناء الأمراء

إن اختيار أمناء أمير ليس بأمر قليل الأهمية؛ فالأمناء إما صالحون وإما غير صالحين تبعًا لحجا الأمير. ويحصل المرء على أول انطباع عن حاكم وعقله حين يرى الرجال الذين حوله. فعندما يكونون قادرين ومخلصين يمكنه دائمًا أن يعتبر الأمير عاقلًا؛ لأنه استطاع أن يتعرف ما قدرة أمنائه، وأن يحتفظ بهم مخلصين. ولكن عندما يكونون على العكس من ذلك يستطيع المرء دائمًا أن يكوِّن عن الأمير رأيًا غير مقبول؛ لأن أول خطأ له يكون في هذا الاختيار .

وما من إنسان عرف أنطونيو دا فنافرو Antonio da Venafro وزيرًا لباندولفوبتر وتشي أمير سيينا إلا واعتبر باندولفو رجلًا جد حكيم؛ لأن أنطونيو أمينه. وللرجال ثلاثة عقول مختلفة؛ الأول، يفهم الأمور من دون معونة سواه. والثاني، يفهمها حين يبينها غيره له. والثالث، لا يفهمها بمفرده ولا بشرح سواه. إن النوع الأول أكثر الثلاثة امتيازًا، والثاني ممتاز أيضًا، ولكن الثالث عديم الفائدة. ولذا يتضح أنه إذا لم يكن باندولفو من النوع الأول، فهو على أي حال من النوع الثاني؛ لأن للأمير دائمًا أن يحكم على معرفة الخير والشر اللذين يفعلهما إنسان أو ينطق بهما، حتى لو لم يكن الأمير صاحب أصالة عقلية، بيد أنه يستطيع أن يعرف أعمال أمينه السيئة والصالحة، ويصحح الأولى،

ويشـجع على الأخرى. ولما كان الأمين لا يستطيع أن يأمل في خداع الأمير؛ فهو لذلك يظل صالحًا.

ولكـي يتسـنى للأمير أن يعـرف وزيرًا فثمـة هذه الطريقـة التي لا تخفـق أبـدًا. عندما تـرى الوزير يفكر في نفسـه أكثر ممـا يفكر فيك، ويبحث عن مصلحتـه الخاصة في جميع أعماله، فلن يكون مثل هذا الرجـل وزيرًا صالحًـا، ولا يمكنك الاعتماد عليه؛ لأن واجب من في يـده مقاليد أمور ولاية غيره ألا يفكر في نفسـه أبـدًا، بل عليه أن يفكر فـي الأمير بمفرده، وألا يعبأ بأي شـيء سـوى ما يخـص الأمير. ومن ناحية أخرى، ينبغي للأمير لكي يصون وفاء أمينه أن يفكر فيه، ويكرمه ويثريـه، ويعطف عليه، ويمنحه رتب الشـرف، ويوليـه الأعمال ذات المسـئولية؛ حتى يجعله الشـرف والثراء العظيمان اللذان قد منحا له لا يرغب في غيرهما، وتجعله السـلطات العامة التي يتولاها يخشـى التغييرات السياسـية. ويسـتطيع الأمراء وأمناؤهـم أن يعولوا بعضهم علـى بعـض حين تظـل بينهم هـذه العلاقـة، وعندما تكـون غير ذلك فالنتيجة ضارة دائمًا لأي منهما، سواء هذا أو ذاك.

الفصل الثالث والعشرون

كيف يجب الفرار من المتملقين؟

ويجب ألا أغفل عن موضوع مهم، وأن أذكر خطأ الأمراء الذي لا يستطيعون مجانبته بغير صعوبة، إلا إذا كانوا على درجة كبيرة من الحكمة، أو لم يسيئوا الاختيار، وهذا الموضوع هو ما يتعلق بالمتملقين الذين يحفل بهم كل بلاط؛ لأن الناس يبتهجون لأمورهم الخاصة ويخدعون بها أنفسهم، حتى إنهم لا يستطيعون أن يتقوا شر هذا الطاعون إلا بصعوبة. وحين يرغبون في اتقائه يخاطرون باحترامهم، ويصحبون أزرياء؛ لأنه لا توجد طريقة أخرى ليقي المرء نفسه شر التملق سوى أن يذر الناس يفهمون أن قولهم الحقيقة لن يؤذيه. ولكنك تفقد احترامهم لك حينما يستطيع كل إنسان أن يخبرك بها . ولذا يجب على الأمير الحكيم أن ينهج على طريقة ثالثة، وهي أن يختار لنصحه رجالًا حكماء، ويعطي لهؤلاء بمفردهم الحرية التامة لكي يذكروا له الحقيقة فيما يتصل بتلك الأمور التي يسأل عنها فقط، ولا شيء سواها . ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع لرأيهم، ثم يتداول الأمر مع نفسه على طريقته الخاصة، ويوافق هذه المجالس مجتمعة، وكلًا من هؤلاء الرجال على انفراد حتى يستطيع كل منهم أن يرى أنه كلما كان حرًّا في الرأي كان أكثر قبولًا عند الأمير. وينبغي له ألا يستمع إلى غير هؤلاء،وأن يأخذ في العمل بأناة وتفكير، وأن يكون في قراراته حازمًا. وكل

مـن يفعل غير ذلـك فإما أن التملق يفضي به إلـى أن يعمل في عجلة، وإمـا أنـه لا يقـر له قـرار أبـدًا لتبايـن الآراء؛ والنتيجـة أن يفقده ذلك كل اعتبار.

وسوف أضرب لذلك مثلًا حديثًا. قال القسيس لوقا Luca مندوب مكسـميليان الإمبراطور الحالي عـن جلالته وهو يتحدث عنه: إنه لم يستشـر أحدًا قط، إلا أنه لم يفعل بتاتًا أي شـيء كما يرغب. وهذا يرد إلـى اتباعـه منهجًا عكس ما سـبق ذكـره. فلمـا كان الإمبراطور رجلًا كتومًا، فهو لم يصرح بنياته لأحد، ولـم يسمع لأي نصيحة، ولكن كان أولئـك الذين حوله يعارضونهـا حين يأخذون في معرفتها عند التنفيذ ويكشـف عنها الغطاء، فينحرف الإمبراطور في يسر عن غرضه. ومن هنا يحدث أن ما يفعله اليوم لا يفعله غدًا، ولا يدرك إنسان أبدًا ما يريد أن يفعله، ولا ما يقصده، ولا يركن أحد إلى قراراته.

ولذلك ينبغي للأمير أن يستشير دائمًا، ولكن عندما يريد هو فقط، لا عندمـا يريـد غيـره. كما ينبغي لـه، على العكس من ذلـك، أن يثبط تمامًـا عزم من يحـاول أن يقدم إليه المشـورة، إلا إذا طلب هو ذلك. وينبغي له أن يكون سـائلًا عظيمًا، ومستمعًا متأنيًا لحقيقة تلك الأمور التـي قد سـأل عنهـا، وأن يغضب بالفعـل حين يجد أن إنسـانًا أحجم لأمـر ما عـن ذكر الحقيقـة بكلها وكليلهـا، وهو يخبره بهـا. إن بعض الناس مخدوع من غير شك حين يظن أن الأمير الذي يشتهر بالحكمة لا يعتبر حكيمًا لطبيعته هو، ولكن ذلك يرجع إلى المستشارين حوله؛ لأن القاعدة الصادقة هي أنه لا يمكن نصح أمير هو نفسـه غير حكيـم، إلا إذا اتفـق أن تخلى عن نفسـه تمامًا بين يدي رجل يسـيطر عليه في الأمـور كافـة، وحدث أن كان هذا رجلًا جد حكيـم. وفي هذه الحالة

فلا شك في أن يحكمه حكمًا صالحًا، ولكن هذا لا يطول أمده؛ لأن هذا الحاكم سيجرده من الولاية. ولكن إذا أخذ المشورة من عدد كبير فلن يستطيع التوفيق بين آرائهم المتباينة ما دام غير حكيم، وسوف يفكرون جميعًا في مصالحهم الخاصة، وسيعجز هو عن تقويمهم أو فهمهم. ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؛ لأن الناس سوف يغشونك دائمًا، إلا إذا أرغمتهم الضرورة على أن يصدقوك. ولهذا يجب أن تكون النتيجة هي: الواجب أن تعزى النصائح الحكيمة لأي ناصح كان إلى حكمة الأمير، لا أن ترد حكمة الأمير إلى النصائح الصالحة التي يتلقاها.

الفصل الرابع والعشرون

لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم؟

ولو روعيت الأمور التي سبق ذكرها مراعاة حكيمة فإنها تجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم في الحكم، كما يصبح في الحال أكثر سلامة وثباتًا في الولاية مما لو كان قد قام فيها منذ زمن بعيد. لأن الأبصار تتطلع إلى أعمال الأمير الجديد أكثر من تطلعها إلى أعمال الأمير الوراثي، وحين تعتبر هذه أعمال قدرة يكثر أنصاره، ويرتبطون به ارتباطًا أوثق مما لو كان حاكمًا قديمًا. لأن الأمور الحاضرة تجذب انتباه الناس أكثر من الأمور الماضية، وحين يجدون حالتهم الراهنة طيبة ينعمون بها ولا يبحثون عن سواها ، وعلى العكس من ذلك، سوف يبذلون ما في وسعهم للدفاع عن الأمير طالما لا يظهر نقصًا في أمور أخرى. وهكذا ينال مجدًا مضاعفًا: مجد إرساء أسس عهد جديد، ومجد تحسينه بالقوانين الصالحة، والأسلحة الصالحة، والأصدقاء الصالحين، والمثل الصالحة. كما أن من يولد أميرًا ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة يكون عاره عارين.

وإذا نظر المرء بعين الاعتبار إلى أولئك الحكام الذين فقدوا ولاياتهم في إيطاليا في أيامنا، مثل ملك نابولي، ودوق ميلانو وغيرهما، فسوف يجد أولًا نقصًا عامًّا في أسلحتهم للأسباب التي ناقشناها بالتفصيل ، ويلاحظ حينئذ أن بعضهم إما أن شعبه يعاديه، وإما إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنهم لم يستطيعوا أن يستوثقوا من النبلاء؛ لأنه من دون هذه النقائص لا تضيع الولايات التي لها قوة

كافيـة تمكنها من أن تحتفظ بجيش في الميدان. إن فيليب المقدوني، لا فيليب أبو الإسكندر الأكبر، بل الذي هزمه تيتوس كونتيوس Titus Quintius، لـم تكن له دولة عظيمـة تقارن بعظمة روما وبلاد الإغريق التي شـنت عليه هجومًا عنيفًا، ولكن، وقد كان رجل حرب، وإنسـانًا يعـرف كيف يحظى بنصرة الشـعب، وكيف يأمن جانـب علية القوم، استطاع أن يستمر في الحرب ضد أعدائه سـنين طويلة. وإذا كان قد فقـد سـلطانه على بعـض المدن فـي نهاية الأمـر فإنه ظل قـادرًا على الاحتفاظ بمملكته.

ولذلك يجب على من سـيطروا من أمرائنا على ممتلكاتهم سـنين طويلـة ألا يتهمـوا الحظ، ولكـن الأحرى بهـم أن يتهمـوا إهمالهم؛ لأنهـم فـي الأوقات الهادئة لم يحسبوا قط حسـابًا لتقلـب الأمور. (شـأن نقيصة البشـر عامة ألا يحسـبوا حسـاب العواصف في الطقس المعتدل). وحين قلب الدهر لهم ظهر المجن لم يفكروا إلا في الفرار بدلًا من الدفاع عن أنفسـهم، وكان أملهم أن يسـتدعيهم الشعب حين يستاء من غطرسة الغزاة. إن هذا الإجراء صالح عندما يعوزهم غيره، ولكـن من أسـوأ الأمور جـدًّا أن نهمل الأدواء الأخـرى من أجل هذا الإجراء؛ لأنه ما من أحد يرغب في السقوط اعتقادًا منه أنه قد يجد من يأخـذ بيده. هذا الأمر قد يحدث وقد لا يحدث، وإذا حدث فلن يقدم إليك الطمأنينة؛ لأنك لم تسـاعد نفسك بنفسـك، ولكن قدمت إليك المسـاعدة كما تقدم إلى جبان. إن أساليب الدفاع الوحيدة الصالحة، والأكيـدة والدائمة، هي تلـك التي تتوقف عليك أنت بمفردك، وعلى قدرتك الخاصة.

الفصل الخامس والعشرون

القدر الذي يلعبه الحظ في الأمور البشرية وكيف يمكن التصدي له

إنني أعرف كم من الكتاب يرى، وما زال، أن الحظ والله يسيطران على حوادث هذا العالم، حتى إن البشر لا يستطيعون أن يغيروها، وأنه، على العكس من ذلك، لا علاج لها أيًا كان؛ ولذا يحكمون بأن الكد كثيرًا فيها غير مفيد، ولكن لنذر الصدفة تحكم الأمور. ولقد زادت في يومنا درجة تأييد هذا الرأي بسبب ما رأوه، وما يزال يرى كل يوم، من التغييرات الكبيرة التي وراء كل حدس إنساني. وحين أفكر فيها فإني أميل في بعض الأحيان إلى المشاركة في هذا الرأي إلى حد ما. ومع ذلك، فلكيلا نقضي نهائيًا على إرادتنا قضاء مبرمًا أرى أنه قد يكون من الصواب أن الحظ حكم لنصفه أعمالنا ، وأنه يتيح لنا أن نحكم النصف الاخر أو ما يقرب منه. وأشبه الحظ بنهر قوي التيار، سريع الجريان، وحين يهيج ويموج يفيض على السهول، ويقتلع الأشجار، ويهدم الأبنية، وينقل الثرى من شاطئ إلى شاطئ، ويفر أمامه كل إنسان، ويستسلم كل شيء لهياجه، من دون أن يقوى على أن يتصدى له، ومع ذلك، ولو أن هذه طبيعته، فإن الناس ما زالوا يستطيعون أن يتخذوا الحيطة منه بالسدود والجسور حين يكون هادئًا، حتى إذا هاج وماج فإما أن يجري في قناة، وإما لا يكون اندفاعه عنيفًا جدًا وخطرًا. وهذا أيضًا شأن الحظ يظهر قوته حيث

لـم تتخذ التدابير لمقاومته، وينحو بغضبه إلى حيث يدري ألا سـدود ولا حواجـز قـد أقيمت لتعترض سبيله. وإذا نظرت إلـى إيطاليا التي كانت مسـرح هذه التغييرات التي قد قدمت الدافـع إليها، فإنك تراها بلدًا من دون حواجز ولا جسور من أي نوع. فلو كانت تحميها تدابير صحيحة مثل ألمانيا، وإسـبانيا، وفرنسـا، لما تسـبب هذا الفيضان في تغييراتها الكبيرة، ولربما لم تقع بتاتًا.

ويجـب أن يكفـي هذا لكـي نتصدى للحـظ عمومًـا، ولكن حين أقتصـر على حالات خاصة فإني أشير إلى كيف يـرى المرء أميرًا من الأمراء يواتيه الحظ اليوم، وغدًا يحطمه،من دون أن نشـاهد أي تغيير عنـده فـي خلقـه أو غيره. أعتقد أن هـذا يرد أول ما يرد إلى الأسـباب التـي قـد ناقشـناها بإطنـاب منذ وقـت قصيـر. وبعبارة أخـرى أقول: السـبب هو أن الأمير الـذي يركن إلى الحظ تمامًا يهلـك عندما يتغير الحظ. وأعتقد أيضًا أن السعيد هو من تتفق حال إجراءاته مع حاجات العصـر؛ وبالمثل فإن التعس هو مـن لا تتفق حال إجراء أعماله معها. لأن المـرء يـرى الرجـال في تلـك الأمور التـي تقودهم إلـى الغرض الـذي يتطلـع كل منهم إليـه، أي العظمة والثراء، يجـرون على طرائق متباينة. هذا يصل بالحذر، وذاك يصل بالتسـرع؛ واحد يصل بالعنف، والآخر يصل بالمكر؛ إنسان يصل بالصبر، وسواه يصل بعكس ذلك. وبهذه المناهج المختلفة تمام الاختلاف يمكن أن يصل كل منهم إلى هدفه. ويرى الإنسـان أيضًا رجلين حذريـن ينجح أحدهما في نيل ما يريد، ويفشل الآخر؛ وكذلك ينجح على حد سواء رجلان لكل منهما منهـج يغاير منهـج الآخر فأحدهما حـذر، والآخر مندفع. والسـر في ذلك ليس سوى طبيعة العصر التي تتفق مع نهج إجراءاتهم أو لا تتفق

معها. ونتيجة ذلك، كما قلت، أن رجلين يعملان بطريقتين مختلفتين يصلان إلى النتيجة نفسها، ورجلين آخرين يعملان بطريقة واحدة يصل أحدهما إلى هدفه، ولا يبلغه الآخر. وعلى هذا الأمر تتوقف أيضًا التغيرات في الفلاح؛ لأنه إذا حدث أن كان الزمن والظروف ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه ينجح، ولكن إذا تغير الزمن والظروف فإنه يهلك؛ لأنه لم يغير من حال إجرائه للأمور. لم يوجد حكيم لدرجة استطاع معها أن يكيف نفسه مع هذا الأمر، إما لأنه لا يمكنه أن ينحرف عما تعده به طبيعته، وإما لأنه كان ينجح دائمًا وهو يسلك مسلكًا واحدًا، فلا يستطيع أن يقنع نفسه بأن من الصالح له أن يترك هذا الطريق. ولذا فإن الرجل الحذر حين يكون الزمن مناسبًا للعمل المباغت لا يعرف كيف يفعل ذلك، وبالتالي يهلك. لأن المرء إذا استطاع أن يغير طبيعته مع الزمن والظروف فلن يتغير حظه أبدًا.

عمل البابا يوليوس بعجلة في كل ما قام به، وألفى الزمن والظروف ملائمين لحال إجرائه الأمور، حتى إنه كان يحصل دائمًا على نتيجة طيبة. ولننظر إلى الحرب الأولى التي قام بها ضد بولونيا وجان بنتيفولي. لم ترق هذه الحرب للبنادقة، ولا لملك إسبانيا، وكانت فرنسا تجري معه محادثات بشأن الحملة. ومع ذلك، جردها شخصيًّا نظرًا إلى استعداداته الضارية وميوله العجال. وكانت نتيجة هذه الحركة توقف إسبانيا والبنادقة وترددهم. وكان الخوف دافع البنادقة إلى ذلك، وكانت العلة بالنسبة إلى إسبانيا رغبتها في أن تستعيد جميع مملكة نابولي. ومن ناحية أخرى أشرك معه ملك فرنسا؛ لأنه حين رآه يقوم بهذه الحركة، وكان يرغب في

صداقته لكي يكسر شوكة البنادقة، رأي ذلك الملك أنه لا يستطيع أن يرفض مساعدته بقواته من دون أن تكون في ذلك إهانة سافرة له. وهكذا أنجز يوليوس الثاني بحركته العجلى ما لم يكن في استطاعة أي بابا سواه أن ينجح في القيام به بأقصى حكمة بشرية. لأنه لو كان قد انتظر حتى تتم جميع الترتيبات، ويتقرر كل شيء قبل أن يبارح روما، لما كتب له النجاح قط؛ لأنه كان من المحتمل أن يجد ملك فرنسا آلاف الأعذار، وأن يوحي إليه سواه بآلاف المخاوف. وإني أقتصر على عمله هذا من دون أعماله الأخرى التي كانت جميعًا من هذا النوع، ونجحت كلها نجاحًا طيبًا. إنه لم يجرب الفشل؛ وذلك لقصر حياته. فلو أنه تلا ذلك أوقات كان من الضروري فيها العمل بحذر، لكانت النتيجة هلاكه؛ لأنه لم يكن ليحيد قط عن هذه المناهج التي أعدته لها طبيعته.

والنتيجة، إذن، أن الحظ حين يتغير، ويثبت البشر على مناهجهم، فإنهم ينجحون طالما تتلاءم هذه الطرائق مع الظروف. ولكن عندما تتعارض مع الظروف فإنهم حينئذ لا ينجحون. ورأي بصورة مؤكدة أن الإقدام أفضل من الحذر؛ لأن الحظ امرأة لابد من أن تظفر بها بالقوة إذا أردت أن تسيطر عليها. ويمكن لنا أن نرى أن الحظ يستسلم للباسل أكثر من أولئك الذين يعملون بأناة. ولذلك فالحظ كالمرأة يصادق دائمًا الشباب؛ لأنهم أقل حذرًا، وأكثر عنفًا، ويسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة سواهم.

الفصل السادس والعشرون

الحض على تحرير إيطاليا من البرابرة

والآن وقد نظرت بعين الاعتبار إلى الأمور التي تحدثت عنها، وتأملت في قرارة نفسي فيما إذا كان الوقت الحاضر لا يلائم ظهور أمير جديد في إيطاليا، وفيما إذا لم يكن ثمة وضع للأمور يعطي فرصة لرجل حول قلب وقدير كي يقدم نظامًا جديدًا يخلع عليه الشرف، ويعود بالخير على كتلة الشعب. ويبدو لي أن كثيرًا من الأمور تتفق وتتلاقى ليحظى بها حاكم جديد لكي يقوم بهذا العمل؛ ولا أعرف وقتًا أنسب له من الوقت الحاضر. وإذا كان من الضروري، كما قلت ، أن يكون الإسرائيليون في مصر عبيدًا لكي تظهر قدرة موسى، وأن يبطش الميديون بالفرس لكي يعطي ذلك البطش مجالًا لعظمة قورش وبسالته، وأن يتفرق شمل الأثينيين لكي يظهر علو كعب تيسيوس، فكذلك الحال الآن كان لابد من أن تنهار إيطاليا إلى حالتها الراهنة لتعرف قوة العبقرية الإيطالية، وأن تكون أحط من العبريين عبودية، وأن يكون البطش بها أشد من البطش بالفرس، وأن يتفرق شملها أكثر من فرقة الأثينيين، وأن تصبح بلا رئيس، وبلا نظام، مقهورة منتهبة، ممزقة كل ممزق، ومغلوبة على أمرها، وأن تكون قد عانت كل صنوف الدمار.

ومع أنه قد لاحت قبل الآن بارقة أمل في أن فردًا معينًا قد يبعثه الله لخلاصها، إلا أننا رأينا الحظ يجانبه وهو في ذروة مهمته ، حتى

إن إيطاليا الآن، وقد فارقتها الحياة تمامًا، تنتظر من قد يأسو جراحها، ويضع حدًّا لاغتصاب لمبارديا، والجشع والاستلاب في مملكة نابولي وتوسكانيا، ويبرئ إيطاليا من تلك الجروح التي طال تقيحها. ولنشاهد كيف تضرع إيطاليا إلى الله أن يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة ومهانتهم. ولنشاهد استعدادها ورغبتها في الانضواء تحت اللواء لو رفعه فحسب رفعًا أي إنسان. ولا أمل لإيطاليا يمكنها أن ترجوه الآن إلا في أن يقود بيتك الرفيع هذا التحرير، فهو عال لنفوذه وحظه، ويحبوه الله والكنيسة التي يستمد الآن منها السلطان. ولن يكون هذا الأمر جد عسير، لو تذكرت أعمال من ذكرت من الرجال وحياتهم. ومع أن أولئك الرجال نادرون وأعاجيب، إلا أنهم بشر على أي حال، وكانت فرصة كل منهم دون الفرصة الحاضرة؛ لأن عملهم لم يكن أعدل من هذا العمل، أو أسهل منه، ولم يكن الله في عونهم كما هو في عونك الآن. هنا قضية عادلة؛ و «الحرب عادلة حينما تكون ضرورية، والأسلحة مقدسة عندما لا يعود أمل إلا في اللجوء إليها». هنا أعظم صدق للعزيمة، وإذا ما صدق العزم فقد وضح السبيل، لو أنك فحسب اقتديت بأولئك الذين وضعتهم أمامك أسوة. وفضلًا عن ذلك، فقد شوهدت في هذا المقام معجزات فذة لقد انشق البحر، وكانت الغمامة دليلًا، وتفجر الماء من الصخر، ونزل المن من السماء. ولقد تضافرت جميع الأمور لعظمتك، وواجبك أن تقوم بما بقي. إن الله لا يريد أن يفعل لنا كل شيء حتى لا يجردنا من الإرادة الحرة، ويحرمنا من نصيبنا من المجد.

وليس بعجيب إذا لم يكن أحد ممن ذكرت من الإيطاليين قد أتى بما نأمل أن يفعل بيتك الرفيع. وإذا كانت القدرة العسكرية قد بدت دائمًا كما لو كان قد قضي عليها تمامًا في ثورات كبيرة جدًّا في

إيطاليا، وفي كثير من العمليات الحربية، فإن علة ذلك أن المناهج القديمة لم تكن صالحة، ولم يقم من عرف كيف يكشف مناهج جديدة. ولا شيء يشرف من يظهر من الرجال شرفًا كبيرًا أكثر مما يأتي به من القوانين والسنن الجديدة، فهذه أمور تجعله موضع إكبار وإعجاب؛ وفي إيطاليا مجال كبير لإدخال كل نوع لتنظيم جديد. وهنا في الأعضاء قدرة عظيمة بينما تفتقر إليها الرءوس. لننظر كيف تفوقت فئة من الإيطاليين قوة ومهارة وذكاء في النزال الفردي والمعارك اللاجماعية، ولكنهم أظهروا الضعف في الجيوش. إن الأمر يعزى تمامًا إلى ضعف القواد؛ لأن أولئك الذين يعملون لا يطاعون، وكل امرئ يظن بنفسه المعرفة، ولم يظهر حتى الآن من سما عاليًا لقدرته وحسن طالعه معًا لدرجة استطاع معها أن يجعل سواه يذعن له. ومن هنا حدث أن كان الفشل من نصيب الجيوش الإيطالية دائمًا لزمن طويل جدًّا، وفي الحروب كافة التي شنت في أثناء العشرين سنة الأخيرة. والشاهد الأول على ذلك تارو Taro، والساندرية Alessandria، وكابوا Capua، وجنوا Genoa، وفايلا Vaila، وبولونيا Bologna، ومسترى Mestri.

ولذلك، فإذا أراد بيتك الرفيع أن يقتفي آثار أولئك العظماء الذين خلصوا أوطانهم، فمن اللازم لك، أولًا وقبل كل شيء، أن تعد نفسك بالأساس الصحيح لكل عمل، ألا وهو قواتك الوطنية؛ لأنك لن تستطيع أن يكون لك جنود أخلص منها، ولا أفضل. وإذا كان كل واحد منها صالحًا، فإنها تكون عينها أحسن حالًا وهي متحدة، وحين ترى نفسها تحت إمرة أميرها، هو يكرمها، وهي تفوز بحظوته. ولذلك فمن الضروري لك أن تعد مثل هذه القوات حتى تستطيع أن تدافع

عن الوطن من الأجانب بالقدرة الإيطالية. ومع أن المشاة السويسرية والإسبانية تعتبران شديدتي البأس، إلا أن لكل منهما نقائصها، حتى إنه يتسنى لنا بتنظيم عسكري ثالث التصدي لهما، فضلًا عن أن نكون على يقين من الغلبة عليهما؛ لأن الإسبانيين لا يستطيعون أن يصمدوا لهجوم الفرسان، والسويسريين لا بد من أن يخافوا ملاقاة مشاة تلقاهم بعزم مثل عزمهم. ولقد كانت نتيجة ذلك، كما سوف يشاهد بالتجربة، أن الإسبانيين لا يستطيعون أن يصمدوا لإغارة الفرسان الفرنسيين، وأن تقهر المشاة الإسبانية السويسريين قهرًا. ومع أننا لم نر بعد مثالًا للتنظيم الأخير، إلا أن موقعة رافنا كانت مثالًا له؛ حيث هجمت مشاة الإسبانيين على الكتائب الألمانية المنظمة على نفس نظام السويسريين. لقد تمكن الإسبانيون برشاقتهم، وبمساعدة تروسهم، من أن يخترقوا صفوفها من بين حرابها ومن تحتها، ومن أن يتخذوا لهم موقعًا يهجمون منه عليها هجومًا سليمًا، ومن دون أن يتسنى للألمانيين أن يدافعوا عن أنفسهم؛ ولو لم يغر عليهم الفرسان لأمكن إفناؤهم على بكرة أبيهم. ولذلك إذا عرفنا نقائص كل من هذين النوعين من المشاة فإنه يمكننا أن نشكل نوعًا ثالثًا يمكنه أن يقاوم الفرسان، ويكون في غنى عن الخوف من المشاة. وتنفيذ ذلك يكون بانتقاء الأسلحة، واختيار تنظيم جديد. وهذه هي الأمور التي تعطي الصيت للأمير الجديد، وتنيله العظمة، حين يدخل هذه الأمور لأول مرة.

وعلى ذلك يجب ألا تتيح لهذه الفرصة أن تمضي؛ حتى يتسنى لإيطاليا أن تجد في النهاية محررها. وإنني لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذي سوف يستقبل به هذا المحرر في تلك

المقاطعات كافة التي قد ذاقت العناء تحت نير الغزو الأجنبي، وعن النفوس المتعطشة للثأر، وعن الولاء المكين، وعن العقيدة الثابتة، وعن دموع الشكر والعرفان. أي باب يوصد في وجه هذا المحرر؟ وأي إنسان يرفض أن يدين له بالطاعة؟ وأي حسد يمكن أن يعترض سبيله؟ وأي إيطالي لا يقبل أن يدين له بالولاء؟ إن رائحة السيطرة الأجنبية تلسع كل أنف. فهل لبيتك الرفيع، إذن، أن يؤدى هذا الواجب، وبتلك الشجاعة والآمال التي توحي بها قضية عادلة؛ حتى ينهض وطن الآباء والأجداد تحت رايتها، ويصدق في رعابتها قول بترارك Petrarch :

إن القدرة تنازل الحماقة

ولا يطول بينهما النزال، وتقهرها؛

لأن القدرة الرومانية القديمة التي تحرك قلوب أبناء إيطاليا

ما زالت تدب فيها الحياة ولم تمت بعد.

الملاحق

تقديم موسوليني
للطبعة الإيطالية عام ١٩٢٤

حدث ذات يوم أن أخبرتني إمولا Imola من فرق القمصان السوداء أني سأهدي سيفًا نقشت عليه كلمة ماكياڤللي : «لا نحافظ على الدول بالكلام». ولقد وضع ذلك حدًّا لترددي، وعين مباشرة اختيار موضوع الرسالة الـذي أقدمه اليوم لتصويتكم عليه. وقد أستطيع أن أسميه : «تعليق عـام ١٩٣٤ على «كتاب الأمير» لماكياڤللي وهو الكتاب الذي أريـد أن أطلـق عليه: «ظل رجـل الحكـم» وفضلا عـن ذلك، يجب أن أضيـف للأمانـة العقليـة، أن مراجـع رسـالتي قليلة، كما سنرى ذلك فيمـا بعد. لقـد قرأت «كتاب الأميـر» وبقية مؤلفـات «الأمين العظيم» قـراءة واعية، ولكن الوقت والإرادة أعوزانـي لكي أقرأ جميع ما كتب عـن ماكياڤللي في إيطاليا وفي العالـم. وأردت أن أضع بيني وبينه أقل عدد من الوسـطاء، القدامـى أو المحدثين، الإيطاليين والأجانب حتى لا أفسـد عملية الاتصال المباشـر بين مذهبه وحياتي التي عشتها، بين مـا لاحـظ وما لا حظـت عن البشـر والأشـياء، بين ممارسـته للحكـم وممارسـتي له. إذن، ما أتشرف بقراءته عليكم ليس باستطراد مدرسي فاتـر حافل باقتباسـات مـن الآخرين. إن هـذا بالأحرى كمـا أعتقده، مسـرحية، لو أننا اسـتطعنا النظر بعين الاعتبار إلى محاولة إقامة جسـر روحي فوق هوة الأجيال بروح مسرحي معين.

ولن أقول جديدًا.

المشكلة هي: ماذا يبقى حيًّا في «كتاب الأمير» بعد أربعة قرون من الزمن؟ هل يمكن أن تكون لنصائح ماكيافللي أي فائدة لرجال الحكم المحدثين؟ هل قيمة المذهب السياسي «لكتاب الأمير» وقف على العصر الذي ألف فيه؛ وعليه فهي قيمة محدودة بالضرورة، وباطلة إلى حد ما؟ أو أليست شاملة وواقعية إلى حد ما وخاصة فعالة؟ إن رسالتي تجيب عن هذه الأسئلة. وأؤكد أنه مذهب ماكيافللي حتى اليوم بعد أربعة قرون؛ والسبب أنه إذا كانت المظاهر الخارجية لحياتنا قد تغيرت تغيرًا كبيرًا، فإن التغيرات في روح الأفراد والشعوب لم تتجلَ عميقة جدًّا.

وإذا كانت السياسة هي فن حكم البشر، أو بعبارة أخرى، تربية أهوائهم وأنانياتهم ومصالحهم بالنظر إلى غايات نظام عام يكاد أن يخرج دائمًا عن نطاق الحياة الفردية؛ لأنها غايات تمتد إلى المستقبل. إذا كانت تلك هي السياسة، فلا ريب في أن الإنسان هو العنصر الجوهري لهذا الفن، ومن هنا يجب البدء. ما البشر في المذهب السياسي لماكيافللي؟ ما فكرته عن البشر؟ هل يتفاءل أم يتشاءم؟ وحين نقول: «بشرًا»، هل يجب علينا أن نفسر اللفظ بمعناه الضيق؟ وبعبارة أخرى نفسره بالإيطاليين الذين عرفهم ماكيافللي وحكم عليهم بوصفهم معاصرين له، أو نفسره بمعنى البشر فيما وراء الزمان والمكان، وحتى نستخدم عبارة مقدسة نقول: بمعنى يدخل «تحت مظهر الخلود». وقبل الشروع في فحص أكثر تحليلًا لمذهب السياسة الماكيافللية كما يظهر لنا مركزًا في «كتاب الأمير»

يبدو لي أن من الواجب أن نكون بدقة: أي فكرة كانت عند ماكياڤللي عن البشر عامة، وعن الإيطاليين خاصة؟

أجل، إن النتيجة الواضحة، وحتى قراءة سطحية«لكتاب الأمير»، هي تشاؤم ماكياڤللي العنيف فيما يخص الطبيعة البشرية. إنه يحتقر البشر، شأن هؤلاء الذين أتيحت لهم الفرصة لمعاملة أندادهم معاملة رحبة ومتصلة، ويجب أن يقدمهم إلينا في مظاهرهم السلبية كأشد ما تكون السلبية، والدنيئة كأحط ما تكون الدناءة.

البشر، عند ماكياڤللي، خبثاء، يتمسكون بالمصالح المادية أكثر من تمسكهم بحياتهم الخاصة، وهم على استعداد لتغيير أهوائهم وعواطفهم. ويعبر ماكياڤللي عن فكرته في الفصل السابع عشر من «كتاب الأمير» هكذا: «لأنه يمكن القول عن البشر عمومًا: إنهم يجحدون المعروف» «ويهذرون في الكلام، ويظهرون غير ما يبطنون، ويقلقلون على تحاشي الخطر، ويطمعون في الكسب، وطالما تفيدهم فهم أعوانك تمامًا»، «ويفدونك بدمهم ومتاعهم وحياتهم وولدهم حين تكون الضرورة إليهم» «بعيدة. ولكن حين تقترب يغدرون بك... ويهلك الأمير الذي لم يعول إلا على وعدهم دون أن يتهيأ بالعدد الأخرى... إن البشر» يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في الإساءة إلى من يهابون؛ لأن إلزام الحب الذي يشده يقطع في كل فرصة من فرص مصلحتهم؛ لأن البشر أنانيون ولكن الفزع من العقاب الذي لا يخفق أبدًا يحفظ الخوف ويصونه. وفيما يخص الأنانية أعثر بين «الأوراق المتباينةعلى ما يلي:

«إن البشر يعانون من ملكية نزعت منهم عناء أكثر من موت أب أو أخ؛ لأن الموت ينسى أحيانًا، أما الثرورة فلا تنسى أبدًا*» «وسبب ذلك بسيط: كل يدري أن تغيير دولة لا يمكن أن يعيد أبًا،»«ولكن قد يعيد امتلاك ملكية. وأعثر في الفصل الثالث من «المقالات... » على ما يلي: وكما يثبت ذلك جميع هؤلاء الذين يفكرون في الحياة المدنية. ولما كان التاريخ حافلًا بأمثلة لذلك، فمن يفكرون في الحياة المدنية؟ ولما كان التاريخ حافلًا بأمثلة لذلك، فمن الضروري لمن يعد جمهورية، ويقيم فيها نظمًا، أن يفترض أن جميع البشر خبثاء، وهم دائمًا على أهبة لاستخدام خبث نفوسهم حين تواتيهم فرصة خالصة لذلك. إن البشر لا يفعلون أي خير أبدًا إلا بالضرورة؛ ولكن هناك حيث تتوفر الحرية، وحينما يمكن أن تكون لدينا فوضى، يمتلئ كل شيء في الحال بالاضطراب وعدم النظام».

ومن الممكن أن تستمر الاقتباسات، ولكن هذا غير ضروري. إن الشذرات التي اقتبسناها تكفي للبرهنة على أن الحكم السلبي على البشر، في ذهن ماكيافللي، ليس عرضيًّا، ولكنه حكم جوهري. وجلي أيضًا أن ماكيافللي حين يحكم على البشر كما حكم عليهم، لم يفكر فحسب في أبناء عصره من أهل فلورنسا، وأهل توسكانيا، والإيطاليين الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، ولكن في البشر كافة دون حصر زماني ومكاني. أما الزمن، فقد انقضت منه حقب؛ ولكن لو أجيز لي أن أحكم

* وهذه الفكرة نفسها ترد بين أفكار الفصل السابع عشر نفسه، وكذلك في ختام الفصل الثالث والعشرين من «كتاب الأمير». (المترجم)

علـى أمثالـي وأبناء عصـري، فقد لا أسـتطيع بأي صـورة أن أضعف مـن حكم ماكياڤللـي، وقد يكون مـن واجبي أن أزيد مـن أهميته. إن ماكياڤللي نفسـه لا ينخـدع، وهو لا يخدع الحاكـم. إن التعارض في فكـر ماكياڤللـي بين الحاكم والشـعب، بيـن الدولة والفـرد* تعارض محتـوم، وهذا ما سـميناه النفعية والبراجماتية، والكلبيـة الماكياڤللية تنبجـس بصـورة منطقيـة من هـذا الموقـف المبدئي. يجـب أن نفهم مـن كلمة «أمير» الدولة؛ وفي فكر ماكياڤللـي الأمير هو الدولة. تمثل الدولـة تنظيمًا وتحديدًا بينما الأفراد تدفعهم أنانية نفوسـهم فينزعون إلـى الخمود الاجتماعـي، والفرد ينزع إلى الهرب باسـتمرار، ويميل إلى عدم إطاعة القوانين، وعدم دفع الضرائب، وعدم القيام بالحرب. وقليل هم هؤلاء الأبطال والقديسـون الذين ضحوا بمصلحتهم على مذبـح الدولة**، وغير هؤلاء جميعًـا في حالة ثورة كامنة ضد الدولة. إن ثورات القرنين السابع عشر والثامن عشر قد حاولت أن تحلل هذا الصـراع الذي يكون عند قاعدة كل تنظيم اجتماعي لدولة؛ وذلك بأن جعلت السـلطة تظهر وكأنهـا صادرة عن إرادة الشـعب الحرة. وهذه خرافة، فضلًا عن أنها وهـم. فأولًا، لم يكن تعريف الشعب قط. وهذا، ككيان شـيء سياسـي؛ كيان مجـرد تجريدًا بحتًا. إننـا لا نعرف معرفة دقيقـة لا أيـن يبـدأ، ولا أين ينتهي. إن صفة السـيادة حيـن تطبق على

---

* يلاحظ من ناحية قول موسوليني أيضًا في خطاب له عام ١٩٣٤: «الشعب هو الدولة، والدولة هي الشعب». ومن ناحية أخرى نلاحظ أن ماكياڤللي يجعل التعارض بين الدولة والفرد تعارضًا محتومًا بالفعل، بينما يجعل التعارض بين الدولة والشعب معدومًا على الإطلاق، (المترجم).

** لقد مثل «الأنصار» مع الرسول هذا الدور في الدعوة الإسلامية؛ ولذا قال لهم: «إنكم لتكثرون عند الفزع (أي الحرب)، وتقلون عند الطمع». (المترجم).

الشـعب تكون سـخرية مؤلمة. الشعب يرسل على أكثر تقدير ممثليه، ولكنه لا يسـتطيع في الحقيقة أن يمارس أي سيادة. إن النظم التمثيلية تخص الآلية أكثر من الأخلاق، وفي البلاد نفسـها التي تسـتخدم فيها هذه الآليات أعظم استخدام منذ قرن وقرون، تأتي ساعات رسمية لا يطلب فيها من الشعب شيء أكثر من ذلك؛ لأننا نحس بأن الجواب قد يكون مهلكًا، وتنزع من الشـعب تيجان السـيادة المصنوعة من الورق وهـي تيجان صالحة فـي الأوقات العادية، ونأمره بـأن يقبل إما ثورة، وإما سـلمًا، وإما السـير نحو حـرب مجهولة، ولا إجـراء آخر؛ فليس سـوى الإقرار والطاعة بالنسبة إلى الشـعب تسحب منه في اللحظات التي قد يستطيع فيها أن يحس بالحاجة إليها، وتترك له فحسب عندما تكـون غير ضـارة، أو ممدوحة كذلـك، وبعبارة أخـرى، في لحظات الإدارة العاديـة. هـل تتصـورن حربًا أعلنـت بالرجوع إلى الشـعب؟ إن الاسـتفتاء يسير سـيرًا حسـنًا جدًّا عندما يكون بصدد اختيار أنسب محل لوضع نافورة القرية، ولكن حينما توضع المصالح العليا لشعب في الميـزان تتقي جيدًا الحكومات فوق الديموقراطية أنفسـها من أن ترجعها إلى حكم الشـعب نفســه. إذن، هناك على الدوام الصراع بين القـوة المنظمـة للدولـة وبين شـرائح الأفـراد والجماعـات، ويوجد حتى في النظـم التي صنعتها لنا الإنسـيكلوبيديا Encyclopedie التي أخطأت عبر روسو بأن أسرفت في التفاؤل إسرافًا لا يقاس. لـم توجد قط نظم حازت الموافقة المطلقة، ويحتمل ألا توجد أبدًا. ولقد كتب ماكياڤللي في «كتاب الأمير» قبل أن تصبح مقالتي هذه مشـهورة بمدة كبيـرة: «وعلى ذلك حدث أن انتصر جميع الأنبياء غير العزل، وهلك

الأنبياء العزل. لأن طبيعة البشـر متقلبة، ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور، ولكن من العسـير أن نُبقي على إيمانهم هذا. ومن هنا لزم ترتيب الأمور بحيث يمكننا استخدام القوة لنكرههم على الإيمان ما ارتدوا عنه. لو كان موسى وقورش ورومولوس عزلًا لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يراعون دساتيرهم أمدًا طويلًا».

لمحات من حياة نيقولو ماكياڤللي

١٤٦٩ (مايـو): مولـد نيكـولا دي برنـاردو ماكياڤللـي لأب اسـمه برناردو، وأم اسمها بارتولوميا دي نيلي.

١٤٧٥: سكستس الرابع (ديللا روفير) يتولى منصب البابا.

١٤٨١: ينتظم ماكياڤللي، مع شقيقه توتو، في تلقي الدروس بمدرسة باولو دا رونسيلوني.

١٤٨٤: إنوسنت القالق (سيبو) يصبح البابا.

أواخر سنوات ثمانينيات القرن الخامس عشر. يبدأ ماكياڤللي في الاستماع إلى محاضرات مارشيللو فيرجيلو أدرياني.

١٤٩١: سافونارولا يبدأ في تحقيق شهرته واعظًا.

١٤٩٢ (إبريـل): وفـاة لورنتسـو دي مديتشـي.ويصبـح بييـرو كبيرًا للعائلة، ويصبح الإسكندر السادس (بورجيا) البابا.

١٤٩٤ (نوفمبر)؛ يتم إقصاء بييرو وآل مديتشي عن فلورنسا، وتدخل القوات الفرنسية إلى المدينة.

١٤٩٨ (مايو): يتم إعدام سافونارولا بتهمة الهرطقة.

(يونيـو): المجلس الأعلى يصـدق على تعييـن ماكياڤللي في منصب المستشار الثاني للجمهورية.

(يوليو): يتم اختيار ماكيافللي أمينًا للمجلس العشري للحرب.

(نوفمبر): يوفَد ماكيافللي في أول بعثة دبلوماسية له إلى بيومبينو نيابة عن المجلس العشري للحرب.

١٤٩٩؛ تقرير عن حرب بيزا.

بعثة إلى كاترينا سفورتسا- رياريو حاكم إمولا وفورلي.

١٥٠٠ (يوليو): بعثة مدتها ستة أشهر لملك فرنسا لويس الثاني عشر.

١٥٠١: ماكيافللي يتزوج ماريتيا كورسيني (وسينجبون ستة أولاد).

١٥٠٢: يتم انتخاب بييرو سورديني لمنصب جونفالونييري gonfaloniere [قاضي القضاة] مدى الحياة.

(أكتوبر)؛ ماكيافللي يوفد في بعثة إلى بلاط قيصر بورجيا (دوق فالنتينو) في إمولا.

(ديسمبر)؛ ماكيافللي يرافق قيصر إلى تشزينا وسنجاليا.

١٥٠٣: وصف أسلوب قتل دوق فالنتينو لكل من فيتيللوتسو فيتللي، وأوليفروتو دا فيرمو، ولورد باجولو، ودوق جرافينا أورسيني؛ ملاحظات بشأن زيادة الموارد المالية؛ حول كيفية التعامل مع متمردي منطقة فال دي تشيانا. فيما يتعلق بخطة ماكيافللي لتعزيز السيطرة الفلورنسية على بيزا (بخصوص التمرد على فلورنسا في الفترة من ١٥٠٢ إلى ١٥٠٩)، تم سؤال ليوناردو دا فنشي عن خطة لتحويل مجرى نهر أرنو ليمر قريبًا من بيزا ثم يتجه إلى مصبه في البحر عند ليفورنو.

(إبريل): تـم إيفاد ماكياڤللي في مهمة إلى باندولفو بتروتشـي حاكم سيينا.

(سبتمبر)؛ انتخاب البابا بيوس الثالث (بيكوليميني).

(أكتوبـر): تم إيفاد ماكياڤللـي في مهمة إلى البلاط البابوي في روما.

(نوفمبر)؛ انتخاب البابا يوليوس الثاني (ديللا روفيري).

١٥٠٤ عشرة الكتب الأولى.

(يناير): البعثـة الثانيـة لماكياڤللـي إلـى بلاط الملـك لويس الثاني عشر.

(يوليو)؛ البعثة الثانية لماكياڤللي إلى باندولفو بتروتشي.

١٥٠٥ : (ديسـمبر): ماكياڤللـي يصبح مقررًا للجنـة الحرب الجديدة (تساعية قوات الميليشيا).

١٥٠٦ : تقرير عن الإعداد العسكري لفلورنسا.

(ينايـر): ماكياڤللـي يضـم جنـودًا إلى الميليشـيا فـي موجيلو شمالي فلورنسا.

(أغسـطس- أكتوبر): البعثة الثانية لماكياڤللي للبلاط البابوي ترافق البابا يوليوس من فيتربو إلى أورفييتو وبيروجيا وأوربينو وتشزينا وإمولا.

١٥٠٧ (ديسـمبر): ماكياڤللـي يوفـد في بعثـة إلى بـلاط الإمبراطور ماكسيميليان.

١٥٠٨ : تقرير حول ألمانيا.

١٥٠٩ : تقرير بشأن ألمانيا والإمبراطور: العشرة الثانية.

١٥١٠ : (يونيو - سبتمبر): البعثة الثالثة لماكيافللي إلى بلاط الملك لويس الثاني عشر.

١٥١١ (سبتمبر): البعثة الرابعة لماكيافللي إلى بلاط الملك لويس الثاني عشر.

١٥١٢ : بعد أن غزت القوات الإسبانية الأراضي الفلورنسية- وسلبت براتو- فلورنسا تستسلم، ويتم عزل سودريني ونفيه حيث يعود آل مديتشي إلى الحكم.

[بعد إبريل ١٥١٢] تقرير عن الشئون الألمانية.

(نوفمبر)؛ يتم إقصاء ماكيافللي من المستشارية وتحدد إقامته لمدة عام داخل الأرض الفلورنسية.

١٥١٣ (فبراير): يحاكم ماكيافللي بتهمة التآمر ويتم تعذيبه وسجنه.

(مارس- إبريل): يعتزل ماكيافللي الحياة العامة بعد إطلاق سراحه، ويذهب إلى مزرعته في سانت أندريا بيركوسينا التي تقع على بعد سبعة أميال جنوب فلورنسا.

(مارس): انتخاب البابا ليو العاشر (جيوفاني دي مديتشي).

(يوليو): ماكيافللي يضع مسودة كتاب «الأمير».

[١٥١٤ أو بعد ذلك] حديث أو تعليق بشأن لغتنا.

١٥١٥ : ينضم ماكيافللي إلى مجموعة المناقشة- المعنية بالأمور

السياسية والأدب – التي تعقد لقاءاتها في أورتي أوريشلاري في فلورنسا، ويبدأ في كتابة تعليقاته على أول عشرة من كتب ليفـي، ويهـدي تعليقه على عشـرة الكتب الأولـى من كتاب ليفي تاريخ روما إلى زانوبي بوندلونتي وكوسيمو روتشللاى حفيد برناردو روتشللاي مخطط حدائق أوريشلاري.

[١٥١٥- ١٥٢٠] رواية ماكياڤللي القصيرة Belfagor.

حوالـي عـام ١٥١٦ نسـخ مـن مسـودة كتـاب الأمير تبـدأ في الانتشار خارج فلورنسا.

[١٥١٧ أو ١٥١٨] قصيدة L»Asino d»oro [الحمار الذهبي].

١٥١٨: ماكياڤللـي يكتـب مسـرحيته السـاخرة Mandragola [جذر الماندراجولا]، وهو الآن ينتهي من كتابة التعليقات.

١٥٢٠: ماكياڤللـي يؤلف كتابه عن تنظيم الجيوش Dell»Arte della Guerra [فـن الحـرب] وكتابـة La Vita di Castruccio Castracani de Lucca [سـيرة كاستروتشـيو كاسـتراكاني دا لوقـا]، وكذلـك يكتـب نبذة عن نظـام لوقا فـي الحكم. وقد كلفه الكاردينال جوليو دي مديتشي بكتابة تاريخ فلورنسا.

١٥١٩ أو ١٥٢٠ تعليق على الأوضاع الفلورنسية بعد وفاة لورنتسو.

١٥٢١ نشر كتاب فن الحرب.

١٥٢٢: استشارة لرافاييلو جيرولامي.

انتخـاب الكاردينـال أدريـان فلورنـزس Adrian Florensz لمنصب البابا باسم أدريان السادس.

١٥٢٣ : انتخاب الكاردينال جوليو دي مديتشي لمنصب البابا واتخاذه لقب كليمنت السابع.

[١٥٢٥-٢٤] مسرحية كليتسيا.

١٥٢٥ : ماكيافللي يزور روما ليقدم كتابه Istorie Fiorentine [تاريخ فلورنسا] كاملًا إلى البابا كليمنت. ويتم عرض مسرحية ماكيافللي Mandragola التي تحظى بقبول واسع في البندقية التي يزورها لاحقًا في مهمة لتسوية نزاع يتعلق بطائفة [نقابة] تجارة الصوف في فلورنسا.

١٥٢٦ : تقرير بشأن تحصين فلورنسا.

ماكيافللي ينقح مسرحيته Mandragola.

١٥٢٧ (مايو): يتم نهب مدينة روما بصورة وحشية من جانب الجيش الإمبريالي المكوَّن بصورة أساسية من الألمان والإسبانيين تحت قيادة دوق البوربون. ويتم طرد آل مديتشي من فلورنسا التي تبدأ في تطبيق دستور جديد.

(٢١ يونيو): وفاة ماكيافللي ودفنه في كنيسة سانتا كروز.

٣١/ ١٥٣٢ : ظهور كتاب التعليقات وكتاب الأمير وتاريخ فلورنسا بعد وفاة ماكيافللي.

فهرس الأعلام

Achilles

أخيـل، بطل الإلياذة، تعلم على يد كل من فوينيكس والقنطور كيرون.

Acuto Giovanni

أكوتـو (جيوفاني). الاسـم الإيطالي لجون هوكـوود، وهو رجل من إسـكس خدم في فرنسـا ورقـاه إدوارد الثالث لرتبـة فارس. وفي عـام ١٣٦٠، توجـه بصحبة قـوة صغيرة مـن قواته إلـى إيطاليا حيث اكتسـب شهرة واسـعة بوصفه قائد للمرتزقة. يُذكر أن القول الإيطالي السـائر (الإنجليزي المُتَأَطلِن هو الشـيطان عينه) كان يشـير بدايةً إلى اعتداءات وحشية يرتكبها مرتزقة إنجليز من نوعه.

Agathocles

أجاتوكليـس. أُعلـن حاكمًـا علـى سـيراقوزة عـام ٣١٧ ق.م، امتـد حكمه ليشـمل صقليـة كلها فيما عـدا الأرض التـي كان يحتلها القرطاجنيـون. وفي عـام ٣١٠ ق.م هزمه الجيـش القرطاجني بقيادة هملقار الذي كان حينذاك يحاصر سـيراقوزة نفسـها. استطاع أن ينقل الحرب إلى إفريقيا بنجاح، ولكنه أُجبر على أن يعود أدراجه إلى وطنه

حين ثار عليه عديد من المدن في سيراقوزة، واضطر إلى عقد صلح مع قرطاجنة. ومات أجاتوكليس عام ٢٨٩ ق.م. ورواية ماكيافللي مستقاة من المؤرخ الروماني جوستين.

Alexander

الإسكندر. الإسكندر الأكبر، ملك مقدونيا (٣٥٦-٣٢٣ق.م). اعتلى العرش عام ٣٣٦ق.م، وأخضع بلاد اليونان واجتاز هيلسبونت]الدردنيل[ليحارب بلاد الفرس عام ٣٣٤ ق.م. وهزم داريوس] دارا[عام ٣٣٣ ق.م. نصب نفسه حاكمًا على آسيا وغزا الهند عام ٣٢٧ ق.م.

Alexander

الإسكندر. م. أوريليوس الإسكندر سفيروس، الإمبراطور الروماني في الفترة ٢٢-٢٣٥ م. ابن عم الإمبراطور هليوجابالوس الأكبر الذي تبناه عام ٢٢١. وقد قتلته القوات المتمردة ربما بتحريض من جانب ماكسيمينوس.

Alexander vı

الإسكندرالسادس. تم انتخاب كاردينال رودريجو بورجيا في منصب البابا عام ١٤٩٢. وتوفي عام ١٥٠٣. اشتهر بسمعة سيئة نظرًا إلى فساد حياته الشخصية، ولحبه العارم لأطفاله غير الشرعيين. لكنه كان كاهنًا بارعًا، وأول بابا يتم وقفه بعد الغزو الفرنسي لإيطاليا والحرب الفرنسية الإسبانية.

Antiochus

أنتيوكوس. أنتيوكوس الأكبر، ملك سـوريا في الفترة ٢٢٣-١٨٧ ق.م. شن أعمالًا عدائية متواصلة ضد الرومان.

Ascanio

أسكانيو. انظر: سفورتسا (الكاردينال).

The Baglioni

الباليونـي. حـكام المدينة البابوية في بيروجـا حيث قامت دولتهم في القرن الخامس عشر.

Bentivogli, Giovanni

بنتيفولـي (جيوفانـي) (١٤٣٨-١٥٠٨). ابـن أنيبالـي بنتيفولـي، المواطن الأول لبولونيا الذي قتلته جماعة منافسة عام ١٤٤٥. نصب نفسه حاكمًا على بولونيا عام ١٤٦٢. وبعد سقوط ميلانو عام ١٤٩٩، أوفد ابنه أنيبالي إلى لويس الثاني عشـر ليعبرِ عن خضوعه له. وطرده يوليـوس الثانـي من المدينة عـام ١٥٠٦ زاعمًا حقه فـي مدن رومانا. ومات فـي المنفي. وعاد أبناؤه إلى بولونيا بمسـاعدة الفرنسـيين عام ١٥١١، لكـن بولونيـا وقعت مـن جديد في يد يوليـوس عام ١٥١٢. والأحداث التي يشـير إليها ماكيافللي في الفصل التاسع عشر تقع في عام ١٤٤٥.

Bergamo, Bartolommeo Da

برجامـو (بارتولوميو دا). هو بارتولوميو كوليوني دا بيرجامو أحد المرتزقـة الذين انضموا إلـى قوات البندقية بدءًا مـن عام ١٤٢٤. قاد قوات البندقية بعد طرد كارمانولا. توفي عام ١٤٧٥.

Bernabó Messer

برنابـو ميسـير. هـو برنابـو فيسـكونتي الـذي حكـم بـلاد ميلانو (٥٤-١٣٨٥) بمشاركة أخويه. وفي عام ١٣٨٥، سجنه ابن أخيه يان جالياتسو ثم قتله.

Cesare Borgia

بورجيـا (قيصر بورجيا). ولد في روما العاصمة عام ١٤٧٦، وهو ابـن الكاردينال رودريجو بورجيا ومدبرة منزله فانوتسـا كاتانيي. ولم يكـن كاهنًـا، ولكنه نصِّب كاردينالًا بعد أن صار شماسًـا عام ١٤٩٣. وفي عام ١٤٩٨، تخلى عن نذوره قبل أن يسـافر إلى فرنسا للتفاوض علـى معاهدة مـع كل من الإسـكندر السـادس ولويس الثاني عشـر، ويحكـم للثاني بحقه فـي الزواج من أرملة شـارل الثامـن والتحالف مع البابا لغزو نابولي. وأصبح دوق فالنس وتزوج شـارلوت دالبريت بنـت عم الملك. وقد وعده لويس بدعمه فـي غزوه المرتقب لرومانا التي كانت تحت سلطة البابا من الناحية الاسمية ويسيطر عليها حكام مسـتقلون. ومـا إن بدأ ربيع عـام ١٥٠١، حتى كان قيصـر قد أخضع مـدن فانو وبيزارو وريميني وتشـزينا وفورلي وفائنـزا وإمولا، وأقامه

البابـا دوقًا علـى رومانا. وفي عام ١٥٠٢، خطـط البابا لغزو كاميرينو وأوربينـو. وبعد حملة ناجحة، واجـه قيصر تمردًا من جانب المرتزقة الذين كانوا في خدمته، فسـحقهم تمامًا بكل قسـوة في سنجاجليا في أواخر شتاء عام ١٥٠٢. وتوفي البابا عام ١٥٠٣؛ وتفتتت دولة قيصر بموت والده ـ برغم أن رومانا كانت موالية تمامًا ـ وبعد محن تحملها بكل شجاعة، مات في إسبانيا عام ١٥٠٧.

تسـنى لماكيافللـي أن يتعـرف على قيصـر وجهًا لوجـه: فكان قد بُعـث إليه في مهام عام ١٥٠٢، وأن يتعرف عن كثب على الأسـاليب التـي كان يتبعها قيصـر في خـداع مرتزقته المتمردين، وبعد سـقوطه فـي روما. والواقع أن «إضفاء الطابـع المثالي» على قيصر بورجيا في كتـاب الأميـر لا يعني بالضـرورة أن ماكيافللي قـام بتحريف الحقائق الخاصـة بقيصر بورجيا على غير النحـو الذي عرفها. إنه لم يعمل إلا على الإعلاء من شأنه.

Braccio

براتشـيو. أندريـا براتشـيو دا مونتونـي (١٣٦٨-١٤٢٤). قائـد مرتزقـة تدرب على يـد ألبيريكـو دا باربيانو. مات وهـو يحارب ضد قوات يوانّـا ملكة نابولي.

Canneshi

كانّسـكي. عائلة قويـة في بولونيـا كانت تدعم سـلطة ميلانو ضد سـلطة البندقية وفلورنسا. وفي ١٤٤٥، حاول كبير العائلة أن يستولي

على سلطة آل بينتيفولي. وقد قُتل أنيبال بنتيفولي، لكن الجماهير قاومت وأُجبر كانسكي على الخروج من المدينة.

Caracalla

كاراكالا. هو م. أوريليوس أنطونينوس الإمبراطور الروماني في الفترة ١١-٢١٧ بعد الميلاد. ابن الإمبراطور سفيروس، وقد ورثا هو وشقيقه جيتا عرش والدهما بعد موته. وفي عام ٢١٢، قتل جيتا فتولى كاراكالا بمفرده السلطة التي مارسها بصورة وحشية. ولزيادة الدخل العام، منح المواطنة الرومانية لكل المواطنين الأحرار في الإمبراطورية. ومات مقتولًا بتحريض من ماكرينوس.

Carmagnola

كارمانولا. هو فرنتشيسكو بوسوني كونت كارمانولا حيث ولد عام ١٣٩٠. عمل بوصفه واحدًا من المرتزقة في جيش البندقية عام ١٤٢٥. وفي فترة ما أصبح قائدًا لقوات البندقية وفلورنسا العسكرية المشتركة، لكنه اتهم بالخيانة وأعدم في البندقية عام ١٤٣٢.

Charles VII

شارل السابع (٢٢-١٤٦١). ملك فرنسا الذي فقد الإنجليز في عهده كل ممتلكاتهم الفرنسية فيما عدا مدينة كاليس. وقد قام شارل السابع بعدد من الإصلاحات المالية والعسكرية مما ساعد على دعم السلطة الملكية.

Charles VIII

شـارل الثامـن (١٤٩٨-٧٠). أصبـح حاكـم فرنسـا الفعلـي عام ١٤٩٢ بعـد أن تزوج دوقة إقليم بريتاني في العام السـابق. غزا إيطاليا (بدافع من الحب العارم للشـهرة والسـيادة) عام ١٤٩٤، تأكيدًا على حقـه في عـرش نابولي بوصفه وريثًـا لبيت أنجو. ودخـل نابولي عام ١٤٩٥. وتشـكل تحالـف غيـر معلن ـ يشـمل إسـبانيا والإمبراطور ـ لقطـع طريق انسـحابه. وبرغـم أن الإيطاليين كانوا الأكثـر عددًا، فإن الفرنسـيين اسـتطاعوا أن يصلوا إلى الجزء الشـمالي من البلاد آمنين بعـد معركـة فورنوفـو المتعادلة فـي نتائجهـا. وفـي ١٤٩٦، أُجبرت القوات الفرنسـية الباقية على الجلاء من نابولي. ومات شـارل الثامن وهو يعد لحملة ثانية ضد نابولي.

Colonna, Cardinal

كولونّـا (كاردينـال). هـو جيوفانـي ابـن أنطونيـو كولونّـا أميـر سـاليرنو. عيِّـن كاردينـالًا عـام ١٤٨٠. تآمـر مـع شـارل الثامن ضد الإسكندر السادس، وتوفي عام ١٥٠٨.

The Colonna

ألكولونّـا. أفراد إحـدى عائلات النبلاء الرومـان التي ذاع صيتها في القرن الثالث عشـر. اسـتصدر الإسـكندر السـادس قـرار حرمان ضدهم وصادر ملكياتهم.

Commodus

كومـودوس. هو م. كومودوس أنطونينوس، الإمبراطور الروماني لأعوام ٨٠ ـ ١٩٣ .جاء خلفًـا لوالده ماركوس أوريليوس، ولكنه كان مغايرًا له تمامًا في سـمعته؛ فقد اشـتهر حكمه بقسوة لا حدَّ لها. شنقه المصارع نارتشسّوس بتحريض من ربة البيت وأفراد الأسرة.

Conio, Alberigo Da

كونيـو (ألبريجـو دا). هـو ألبريجـو دا بربيانـو كونـت كونيـو في رومانا. وبسـببه، على الأغلـب، حل المرتزقـة الإيطاليون محل فرق المرتزقة الأجانب في إيطاليا في الربع الأخير من القرن الرابع عشـر. كوَّن ألبريجو جماعة عسكرية أطلق عليها اسم «فرقة سان جورج» لم يقبل فيها إلا الإيطاليين. مات عام ١٤٠٩ .

Cyrus

قورش. مؤسـس الإمبراطورية الفارسـية. قتل في إحدى المعارك عام ٥٢٩ ق.م.

Darius

داريوس. هو دارا آخر ملوك الفرس ٣١-٣٣٦ ق.م.

DAVID

داود (١٠١٢-٩٧٢ ق.م تقريبًـا). اعتلـى عـرش إسـرائيل خلفًـا لشاءول، ووسع أراضيها من خلال سلسلة من الانتصارات العسكرية الرائعة. استولى على أورشليم حيث أقام عاصمة قومية.

Epaminondas

إيامينونداس. القائد ورجل الدولة الطيبي الذي استطاع أن يسيطر على اليونان لصالح أهل طيبة.

Fabius Maximus

فابيوس ماكسيموس. قنصل روما خمس مرات، ونُصِّب ديكتاتورًا عام ٢١٧ ق.م في أثناء الحرب ضد هانيبال حين ساءت سمعته بسبب سياسـته الحذرة. وقد كان معاديًا للقائد والقنصل الروماني سـكيبيو. وتوفي عام ٢٠٣ ق.م.

Ferdinand Of Aragon

فرديناند (ملك أراجون) (١٤٥٢-١٥١٦). مثَّل زواجه من إزابيلا ملكة قشتالة خطوة حاسمة في إنشاء السلطة الإسبانية العالمية في القرن الخامس عشر. وبعد عام ١٤٧٤، أصبح مشاركًا لإيزابيلا في حكم قشتالة، وأصبح ملكًا على أراجون عام ١٤٧٩. وقام عام ١٤١٩ بغزو غرناطة، آخر ممالك الفاتحين المسلمين في إسبانيا، واحتلالها بصورة نهائية. وقد كانت سياسة فرديناند الخاصة بالتركز داخل بلاده تصاحبها سياسة خارجية تهدف بالأساس إلى تطويق فرنسا. وتوصل فرديناند إلى اتفاق مع الفرنسيين بشأن اقتسام نابولي، وبحلول عام ١٥٠٥ كان قد أحكم قبضته على المنطقة كلها. وخلفه حفيده شارل حاكم النمسا (الإمبراطور شارل الخامس).

Duke Of Ferrara

فرارا (دوق).

(١) إركولي ديستي حاكم فرارا(١٤٧١-١٥٠٥) الذي جاء خلفًا لأخيه غير الشقيق بورسو ديستي، الذي كان أول دوق، مع أن الأسرة كانت موجودة في فرارا منذ وقت مبكر من القرن الثالث عشر. تزوج إركولي ابنة فيرّانتي ملك نابولي. وقد أدت به النزاعات الاقتصادية مع البندقية والمطالبات الإقطاعية للبابا إلى التحالف مع البندقيين وسكتس الرابع ضد فيرّانتي وإركولي عام ١٤٨١. وانتهت الحرب التي شملت عددًا كبيرًا من الدول الإيطالية بخسائر إقليمية كبيرة منيت بها فرارا بعد أن تراجع سكتس عن موقفه. ومن ١٤٩٩، بعد الغزو الفرنسي لميلانو، التحق إركولي بخدمة البلاط الفرنسي وحصل على الحماية الفرنسية. وخلفه في الحكم (٢) ألفونسو ديستي. وقد ارتبط ألفونسو بحلف كامبراي (راجع: لويس السابع) عام١٥٠٨. وظل ألفونسو حليفًا لفرنسا بعد تسوية الخلاف مع البندقية في ١٥١٠، وصدر ضده قرار الحرمان من الكنيسة، وشن يوليوس هجومًا عليه. وتوفي ألفونسو عام ١٥٣٤.

Duke Filippo

فيليبو (دوق). هو فيليبو فيسكونتي آخر دوق لآل فيسكونتي في ميلانو (١٢-١٤٤٧). زوّج ابنته بيانكا فرنتشسكو سفورتسا.

Fogliani, Giovnni

فوجلياني (جيوفاني). مواطن بارز في فيرمو، قتل عام ١٥٠١.

Countess Of Forlí

فورلي (كونتيسة) هي ماترينا سفورتسا (١٤٦٣-١٥٠٩). ابنة غير شرعية لكل من جاليتسو سفورتسا ولوكريتسيا لاندرياني. تزوجت جيرولامو رياريو كونت فورلي، وتولت السلطة بعد اغتيال زوجها عام ١٤٨٨ حتى استولى قيصر بورجيا على فورلي عام ١٥٠٠. وتم سجنها في روما. وفي نهاية المطاف ماتت في دير فرنسي.

The Gracchi

ألجراكــي. عائلة رومية شهيرة. وقد اغتيل تبيريوس جراكوس (المحامي العام في ١٣٣ ق.م) بعد أن حاول تقييد سلطة الأرستوقراطية. وكان أخوه سي سيمبرونيوس جراكوس (المحامي العام في ١٢٣ ق.م)، الذي دعا إلى إصلاحات واسعة، معارضًا قويًا لمجلس الشيوخ الذي استطاع في النهاية أن يستميل الشعب. وبعد حادث شغب قُتل فيه عدد كبير من أنصاره، مات مقتولًا بيد واحد من أرقائه.

Duke Urbino

جويدوبالدو (دوق أوربينو) (١٤٧٢-١٥٠٨). آخر دوق في سلالة مونتيفيلترو. حكم أوربينو ابتداءً من عام ١٤٨٢. هرب عند دخول قيصر بورجيا عام ١٥٠٢، وعاد إلى المدينة حين نفذ مرتزقة قيصر مؤامرتهم على الأخير. نشر بلاطه كتاب **Book of the Courtier** الشهير، عن صفات رجل البلاط المثالي.

Hamilcar

هملقــار. تــم تعييــن هملقار برقــة قائـدًا للقـوات القرطاجنية في صقلية عام ٢٤٧ ق.م في أثناء الحرب البيونية الأولى.

Hannibal

هانيبـال (٢٤٧-١٨٣ ق.م). ابـن هاميلكان. قضى جل حياته في محاربة الرومان. أصبح قائد الجيش القرطاجني عام ٢٢١ ق.م، وغزا إيطاليا من الشـمال في الحرب البونية (القرطاجنية) الثانية لكنه فشـل في إخضاع روما، وفي النهاية تم إيقاع الهزيمة به على نحو حاسم في إفريقيـا. وأُجبر على الفرار من قرطاجنة وتناول السـم حتى لا يأسـره الروم.

Heliogabalus

هليوجابالـــــوس أو **Elagabalus** إلاجابالوس. إمبراطور رومي فـي الفتـرة ٢١٨-٢٢٢. دُعـي «هليوجابالوس» لأنـه أُعِدَّ فـي طفولته ليكـون قسًّـا على دين إله الشـمس هليوجابالوس. وادعـت جدته أنه ابن الإمبراطور كاراكالا ثـم أدت حملة قصيرة إلى هزيمة ماكرينوس وتنصيبه إمبراطورًا باسم م. أوريليوس أنطونينوس وهو في سن الثالثة عشرة. وكان حاكمًا أحمق ووحشيًّا. وقد قتل في النهاية بيد جنوده.

Hiero Of Syracuse

هيــرو (ملك سـيراقوزة). هيرو الثاني، أحد أعضـاء طبقة النبلاء. أصبــح حاكمًــا عــام ٢٧٠ ق.م بعـد أن هـزم الميمرتين أبنـاء المريخ

(ويطلق الآن على ميمرتنا اسم «مسينا»). ساند القرطاجنيين في بداية الحـرب البونيـة الأولى، لكنه عقد فيما بعد صلحًـا مع الرومان الذين حافظ على تحالفه معهم. وقد استمد ماكياڤللي روايته من جستين.

Joanna, Queen

يوانّــا (الملكـة). يوانّـا الثانية ملكة نابولـي. كانت حاكمة ضعيفة دخلـت نابولـي في عهدهـا (١٤١٤-١٤٣٥) في حالة فوضى مسـتمرة. اتخـذت من ملـك أراجون وريثًـا لها، لكنهـا غيرت رأيهـا واتخذت بدلًا منه لويس أمير أنجو الذي كان مدعومًا من البابوية. وفي الصراع الحـادث، تَحارب قائدا المرتزقة، سفورتسـا وبراتشـو، وجهًا لوجه. وتوفيت يوانّا من دون أن تنجب أطفالًا بعد أن عينت رينيه أمير بروفانس، شـقيق لويـس. وفـي نهايـة المطـاف، ظفـر الأرجونيـون بالمملكة.

Julian

جوليـــان. م. ديدوس جوليانوس، عينه الحرس الإمبراطوري بعد مقتـل بيرتيناكس عـام ١٩٣م. وقد تم قتله مع وصول سـفيروس إلى روما.

Julius II

يوليـوس الثاني. هو جوليانو ديللا روفيري كاردينال سـان بطرس آد فنكـولا. اعتلـى كرسـي البابويـة فـي الفتـرة ١٥٠٣-١٥١٣ خلفًا للكاردينـال فرنتشسـكو بيكلولومينـي الـذي نُصِّب لمدة أشـهر قليلة متخذًا لقب بيوس الثالث بعد الإسـكندر السـادس. كان قائدًا نشـطًا،

ودبلوماسـيًّا ورئيسًـا ذكيًّا اسـتطاع أن يعزّز السـلطة المحلية للكنيسة بنجـاح تـام. وأخضع بـكل اقتدار سـلطة بارونـات رومـا؛ حيث قام فـي البدايـة بالتحريض ضـد البندقية، ثم تغلّب علـى الحلف المضاد لفرنسا. وأقام يوليوس الثاني في روما مشاريع عظيمة للبناء والنحت، وخطـم كاتدرائيـة القديـس بطـرس القديمـة ووضع حجر الأسـاس لكاتدرائية القديس بطرس الحالية.

Julius Caesar

يوليوس قيصر. ولد حوالى عام ١٠٢ق.م. وكما أشار ماكيافللي، أقام يوليوس قيصر سلطته في البداية لمصلحة الشعب وحاز رضاهم بتسـامحه الشـديد. وأقام من نفسـه ديكتاتـورًا على روما قبـل أن يتم اغتياله عام ٤٤ ق.م.

Leo x

ليـو العاشـر (١٤٧٥-١٥٢١). هـو الكاردينـال جيوفانـي دي مديتشي ابن لورنتسـو دي مديتشي. أُختير لمنصب البابا عام ١٥١٣، وعـزَّز من حظوظ عائلة مديتشـي بقـوة، وذلك بتعيين سـتة من ذوي القربـى فـي مناصـب الكاردينال، فعين على سـبيل المثـال ابن أخيه، لورنتسو، دوقًا على أوروبينو بدلًا من فرنتشسكو ديللا روفير. مارس في البداية سياسـة يوليـوس الثاني المعادي لفرنسـا، لكنه توصل إلى تفهمات مع فرانسيس الأول واستكمل عمليات تسوية الخلافات عن طريـق الاتفاقية البابوية لعام ١٥١٦ حيث سـاند بموجبها الفرنسـيين ضد شارل الخامس. وكان راعيًا سخيًّا للفنون. وفي فترة توليه منصب البابوية نشر لوثر آراءه المناهضة لصكوك الغفران.

Louis XI

لويس الحادي عشـر (٢٣-١٤٨٣). ملك فرنسا منذ عام ١٤٦١. وسـع بصورة جوهريـة الأراضي التابعـة للتاج الفرنسـي. وقد أقرّت المعاهـدة التـي خولـت لـه الحق فـي تجنيد قـوات في سويسـرا عام ١٤٧٤.

Louis XII

لويـس الثانـي عشـر (١٤٦٢-١٥١٥). ابن شـارل دورليانز، وقد اعتلـى عرش فرنسـا خلفًـا للملك شـارل الثامن عـام ١٤٩٨. كانت لديـه ادعـاءات عن حقه الشـرعي فـي كل مـن ميلانو ونابولـي، ولـم يُضـع وقتًا فـي الدفاع عنهما. كان أول شـيء يقوم به هـو إلغاء صفقة مـع الإسـكندر السـادس؛ الأمر الـذي مكنه مـن التخلي عـن زوجته جيـن ابنـة لويس الحـادي عشـر والاقتران بأرملة شـارل التـي منحته إقليـم بريتاني بوصفها بائنة لها. وفي ١٤٩٩، عقد معاهدة مع البندقية لتقسـيم ميلانو وذهب إلى ميلانو في خريف نفس العام. (و اسـتطاع لودوفيكو استرداد البلدة لمدة قصيرة في وقت مبكر من عام ١٥٠٠.) وفـي نوفمبـر ١٥٠٠، وقـع لويس اتفاقه السـري مع إسـبانيا لتقسـيم نابولي التي غزاها الفرنسيون عام ١٥٠١. وفي العام التالي اصطدمت القوتان، وطُرد الفرنسيون عام ١٥٠٣ شر طردة حتى نهر جاريجليانو. وبعـد أعـوام قليلـة، وقـع لويـس معاهدة مـع كل مـن البابا وإسـبانيا والإمبراطورية لتقسيم أراضي البندقية (تحالف كامبراي). وقد ألحق الجيش الفرنسـي هزيمة ساحقة بقوات البندقية عام ١٥٠٩ في موقعة

أجناديللـو (أو فايلا)؛ لكن الفرنسـيين أصابهم الفتور في الحرب بعد أن حققـوا أهدافهم، وبدأ يوليوس الثاني يتقرب من البندقيين. وتزايد العداء بين فرنسـا والبابوية، وانتهت محاولة لويس اسـتدعاء القنصل العام إلى فشـل ذريـع، وإلى تشـكيل يوليوس تحالفًا مقدسًـا بصورة ناجحـة. وفي عام ١٥١٢، انتصر الفرنسـيون في موقعـة رافينا لكنهم فقدوا قائدهـم جاستون دي فوا. وبعد رافينا، تراجع الفرنسيون بحيث لـم يبق لهـم سوى قلعة ميلانو وقلعة جنوة فقط من كل فتوحات لويس فـي إيطاليا. (في عام ١٥١٢، اضطرت فلورنسـا إلى الانسـحاب من مديتشـي، ومـات يوليـوس فـي ١٥١٣.) وفـي ١٥١٣، أنهـى لويس تحالفـه مـع البندقية ضـد ميلانو، لكن القـوات السويسـرية كانت قد هزمـت الفرنسـيين في موقعـة نوفارا لصالح مسـيميليانو سفورتسـا. وفـي بدايـة عـام ١٥١٥، اعتلـى فرانسـيس الأول خلفًا للويس سـدة الحكـم وعبَر جبـال الألب على رأس جيش كبير بعد أشـهر قليلة من توليه العرش.

Luca, Bishop. Pre Luca

لوقـا (الأسـقف) [الكاهـن لوقا] كما سـماه ماكيافللي (فالمقطع «pre» عنـد البندقيين يعني كاهنًا «prete» أو قسًّـا). هـو لوقا رينالدي الذي عمل سفيرًا للإمبراطور ماكسيميليان.

Ludovico

لودوفيكو. هو لودوفيكو المورو. ابن فرنتشيسكو سفورتسا (دوق ميلانو) وبيانكا مارينا فيسـكونتي. استولى لودوفيكو على السلطة في

ميلانو عام ١٤٧٦ بعد أن كانت ولاية العهد لابن أخيه جان جاليتسو؛ وتزوج باترتشا ديستي ابنة دوق فرارا، ودعم موقفه بالتحالف بكل من نابولي وفلورنسـا. وقد أدى زواج جان جاليتسـو مـن إيزابيللا (ملكة أراجـون) إلـى دفعه بعيدًا عـن نابولي لصالح لودوفيكـو؛ الأمر الذي وثق صلة الأخير بفرنسا. وقد دعم لودوفيكو غزو شارل الثامن؛ وبعد الغزو بقليل، مات جان جاليتسـو، ومن المحتمل أنه يكون قد قتل بيد لودوفيكو الـذي كان قد أعلن أنه الدوق. وانضم إلى تحالف البندقية عام ١٤٩٥ خوفًا من نجاح الغزو الفرنسـي. وبعد تراجع الفرنسيين، عقد معهم اتفاقية سلام منفصل. ومع توليه العرش، عاد لويس الثاني عشـر (الذي كان يدعي من قبل أنه دوق ميلانو بصفته دوق أورليانز) يطالب بحقه في ميلانو التي دخل إليها عام ١٤٩٩ . وبعد عام، حدث هناك تمرد فعاد لودوفيكو، إلا أن جيشًا فرنسيًّا جديدًا ألحق به الهزيمة عام ١٥٠٠ . وأمضى بقية حياته سجينًا في حصن فرنسي حصين.

Macrinus

ماكرينـوس. م. أوبليوس ماكرينوس إمبراطـور روماني في الفترة ١٧-٢١٨. جـاء من أصول فقيرة ليدخل في خدمة سـفيروس؛ حيث توصـل إلى المناصب تحت قيـادة كاراكالا الذي نـودي به بعد وفاته إمبراطورًا. وقد هزمه أنصار هيلوجابالوس وقتلوه.

Marquis Of Mantua

مركيـز مانتوا. هـو فرنتشيسـكو جونزاجا أحد المرتزقـة الذي قاد القوات الإيطالية في معركة فورنوفو عام ١٤٨٥.

Marcus Aurelius

ماركوس أوريليوس (٢١-١٨٠م). هو الإمبراطور الروماني إم. أوريليوس أنطونينوس في الفترة من عام ١٦١ إلى عام ١٨٠م. وكان رواقيًا اتسم عهده باضطهاد المسيحيين، وكانت توجهاته تشمل أفكاره الفلسفية. كان حاكمًا كفئًا ودءوبًا في العمل في وقت واجهت فيه الإمبراطورية صعوبات خارجية وداخلية جمة.

Maximilan

ماكسيميليان (١٤٥٩- ١٥١٩). ابن الإمبراطور فريدريك الثالث وخليفته. عُيِّن ملكًا على أهل روما عام ١٤٨٦ ولم يتوج إمبراطورًا على روما؛ لكنه اتخذ لقب الإمبراطور المنتخب عام ١٥٠٨ بموافقة يوليوس الثاني. استخدم زوجته في مهام دبلوماسية شاقة استهدفت بناء النفوذ الأوربي لأسرة هابسبورج. في الداخل؛ كان ماكسيمليان ناجحًا إلى حدٍّ ما في المحاولات التي كانت تتطلع إلى بناء مركزية إدارية موحدة. ومع أن طموحاته كانت واسعة جدًّا؛ اتسم عهده في النهاية بالإحباط والفشل. كان هذا الأمر مرتبطًا بحلمه الخاص بقيادة حملة أوربية لا هوادة فيها ضد الإسلام، وبجهوده لإعادة بناء سلطة إمبراطورية في إيطاليا. وقد كانت غاراته على إيطاليا مدفوعة، في المقام الأول، برغبته في استعادة الأرض من البندقيين: لكن العجز المالي الدائم والتخوف من نجاح العسكرية الفرنسية جعلت انتهاج سياسة متماسكة أمرًا مستحيلًا. أفلم يكن هذا متعارضًا مع

الغـزو الفرنسـي لإيطاليـا عـام ١٤٩٤ الـذي ربمـا يكون قـد تم على أمـل الحصول على تأييد شـارل الثامن ضد البندقية؟ وعلى أي حال، فقد انضم ماكسـيميليان عام ١٤٩٥ إلى تحالف البندقية السـاعي إلى طرد الفرنسـيين، على الرغم من أن قواته كانت غائبة تمامًا في معركة فورنونـو. وفي عـام ١٤٩٦ منحـه حاكم ميلانـو (لودوفيكـو) وأهل البندقيـة إعانة ماليـة ليحارب لصالحهـم في إيطاليا ضد الفرنسـيين؛ وبعد فشـل الغزو الفرنسـي فـي تحقيق مـا كان يصبو إليه، أسـند إليه لودوفيكـو مهمـة فاشـلة ومثيـرة للسـخرية وهـي مسـاعدة بيـزا ضد الهجوم الفلورنسـي. وباءت محاولته لشـن حرب ضـد لويس الثاني عشـر عند توليه الحكم بالفشـل، كما أن خططه منيت بفشل ذريع في الصراع مع سويسرا، وكانت النتيجة النهائية هي إقامة اتحاد سويسري محايد ومستقل. وفى عام ١٥٠٧، عاد ماكسيميليان إلى مشروع إحياء الإمبراطوريـة فـي إيطاليا؛ لكنه تخلى عن مشـروعه ليذهب إلى روما ليتوج إمبراطورًا، وبدأ أعمالًا عدوانية ضد البندقية اسـتمرت بشـكل متقطـع لمدة ثمانية أعوام. وفـي ١٥١٢ انضم للحلف المقدس وعاد إلى نشـاطه في إيطاليا بعد تولي فرانسـيس الأول واستعادة الفرنسيين ميلانو عام ١٥١٥، لكن جهوده باءت بالفشل من جديد. وكان حفيده هو الإمبراطور شارل الخامس.

Maximinus

ماكسـيمينوس. هـو الإمبراطور الروماني سـي يوليـوس فيروس ماكسـيمينوس (٢٣٥- ٢٣٨م). أسـند إليه الإسكندر سفيروس قيادة المجلـس الأعلى للجيش واختار هذا الأخير الذي ربما كان مسـئولاً

عـن مقتلـه خلفًا لـه. وكان عهده القصير وحشـيًّا ودمويًّـا. وقد قامت قواته العسكرية بقتله.

Nabis

نابيـس. هـو طاغيـة إسـبرطة الـذي اشـتهر بوحشـيته. تولـى عام ٢٠٧ م. هزمـه فيلوبومين في إحدى المعارك عـام ١٩٢، واغتيل بعد ذلك بقليل.

Oliverotto Of Fermo

أوليفروتّـو (حاكـم فيرمـو). أوليفيروتـو ايفريدوتشـي. وأحداث فيرمـو التـي يذكرها ماكيافللـي وقعت عام ١٥٠١ . وقد تم شـقنه في سنجاجليا عام ١٥٠٢ .

Remirro De Orco

رميـرو دي أوركـو. هو راميـرو دي لوركه المتحدث باسـم قيصر بورجيـا الذي رافقه إلى فرنسـا عـام ١٤٩٨ . عُيِّن حاكمًـا على رومانا عام ١٥٠١ . وقد تم العثور عليه قتيلًا عام ١٥٠٢ .

The Orsini

الأورزني. أسـرة رومانية اشتد عودها في النصف الثاني من القرن الثالث عشـر. اسـتعان بـه قيصر بورجيـا في حملاته المبكـرة بوصفه واحدًا من المرتزقة. شـارك في المؤامـرة ضد قيصر الذي أوقع به في سنجاجليا.

Paulo, Signor

باولو (السـيد باولو). هو باولو أورزني قائد فرقة أورزني الذي تم شنقه في سنجاجليا بعد أن أوقع به قيصر بورجيا.

Pertinax

برتيناكس. هو الإمبراطـور الروماني بي هلفيوس برتيناكس الذي تولى منصب الإمبراطور لمدة أشـهر قليلة عام ١٩٣م حيث تم إقناعه بتولـى السـلطة بعد وفاة كومودوس. سـرعان ما قابـل جنود الحرس الإمبراطـوري إصلاحاته المندفعة- خصوصًـا المتعلقة بنظام العمل بالجيش - بالنفور وقتلته قوات التمرد.

Petrarch

بتـرارك. فرنتشيسـكو بترارك (٤٠-١٣٧٤). أحد أعظم الشـعراء الإيطاليـين. وكان ماكيافللـي، الذي كثيـرًا ما يقتبس منـه، على دراية واسـعة بأشـعاره. والأبيـات الأربعـة الواردة فـي نهاية كتـاب الأمير مأخوذة من الأغنية السادسـة عشـرة البادئة بعبارة «بلادي الإيطالية»، الموجهـة إلى حـكام إيطاليا، تمثـل احتجاجًا ضـد حربهم الضروس واستعانتهم بالمرتزقة الأجانب.

Petrucci, Pandolfo

باندولفو بتروتشـي. حاكم سـيينا الذي أقام نفسه سـيدًا عليها عام ١٥٠٢. وكان حليفًا مشـكوكًا في ولائه للبندقية. وقد أُوفد ماكياڤللي للتفاوض معه مرات عديدة.

Philip Of Macedon

فيليب المقدوني.

(١) ملك مقدونيا (٣٥٩-٣٣٦ق.م). اتبع سياسة توسعية عدوانية لإخضاع بقية بلاد اليونان. قتل وهو يستعد لقيادة القوات اليونانية ضد بلاد فارس.

(٢) ملك مقدونيا (٢٢٠-١٧٨ق.م) شارك في حربين ضد الرومان الذين ألحقوا به هزيمة تامة عام ١٩٧.

Philopoemen

فيلوبوميـن. أُعلن قائدًا عامًّا لتحالف الآخيين الذين حاولوا بناء استقلال للآخيين على أساس عسكري سليم. وكان قد عُيِّن قائدًا عامًّا لأول مرة عام ٢٠٨ ق.م.

Count Of Pitigliano

بتيليانو (كونت بتيليانو). هو نيقولو أورزيني (١٤٤٢-١٥١٠) أحد مرتزقة البندقيين، وكان قائدًا مشاركًا في معركة فايلا.

Pyrrhus

بايروس (٣١٨-٢٧٢ق.م) ملك إيبيروس الذي حاول غزو مقدونيا. شن حربًا ضد الرومان في إيطاليا وضد القرطاجنيين في صقلية.

Romulus

رومولوس. المؤسس الأسطوري لروما وأول ملك لها.

Rouen

رويـن. هو جورج دامبواز رئيس أساقفة روين (١٤٦٠-١٥١٠). المستشـار الأكثر نفوذًا للويس الثاني عشـر وخصوصًا في الإشـراف على مشـاريعه التجارية في إيطاليا. عينه الإسكندر السادس كاردينالًا عام ١٤٩٨ كجزء من صفقة بينه وبين لويس.

San Gorgio

سان جورج. الكاردينال رافايللو رياريو السافوني.

San Pietro Ad Vincula

سان بطرس آد فنكولا. انظر: يوليوس الثاني.

San Severino, Ruberto Da

سـان سفرينو (روبرتو دا سان سـفرينو). أحد أبناء نابولي مجهول الأصـل. شـارك في حرب المرتزقة فـي لومبارديا. عُيِّـن قائدًا لقوات البندقيـة عـام ١٤٨٢ وقد أدى خدمة للبابوية فـي وقت لاحق. ومات وهو يحارب لصالح البندقية عام ١٤٨٧.

Saul

شاءول. اختير كأول ملك لإسرائيل نحو عام ١٠٢٥ ق.م.

Savonarola, Girolamo

سافونارولا (جيرولامو) (٥٢-١٤٩٨). وُلد في فرارا، والتحق بجماعة الرهبان الواعظين (الدومينيكان). قضى الجزء الأكبر من حياته في هدوء. في الأعوام الأولى من ثمانينيات القرن الخامس عشر، أُرسل إلى دير سان ماركو في فلورنسا حيث بدأ بصورة متواضعة. لكن قدرته الوعظية- التنبئية والنهويّة- ضمنت له منذ حوالي عام ١٤٩١، حين أصبح رئيسًا لدير سان ماركو، مجموعة كبيرة من الأنصار. وبعد طرد آل مديتشي، حينما ثبتت صحة تحذيراته بوضوح، زاد نفوذه السياسي بصورة مطردة، ووصل هذا النفوذ حده الأعلى في الفترة من ١٤٩٤ إلى ١٤٩٧. فجاء الدستور الجمهوري الذي تم إقراره عام ١٤٩٤ ـ إلى حد بعيد ـ وفقًا لأفكاره. وقد أثار سافونارولا معارضة عنيفة كما أبدى تفانيًا شديدًا. وقد أثار دفاعه الصريح والثابت للكنيسة غضب الإسكندر السادس ليمنعه من الوعظ أولًا؛ وليستصدر ضده قراراً بالحرمان الكنسي في نهاية المطاف. وسرعان ما انقلب عليه الرأي العام في فلورنسا. وفي عام ١٤٩٨، بعد أن هدَّد الإسكندر بفرض الحظر على فلورنسا، كان سافونارولا سجينًا ومحكومًا عليه بالتعذيب والإعدام.

Scali, Giorgio

سكالي (جورجو سكالي). قائد الفصيل الفلورنسي الذي هاجم عام ١٣٨٢ قصر أحد السادة محاولًا إنقاذ صديق من العقاب. وقد عوقب هو نفسه بقطع الرأس.

Scipio

سـكيبو. بي كورنيليوس سكيبيو أفريكانوس (٢٣٤-١٨٣ ق.م). قائـد وقنصـل روماني عظيـم. قاد حملة عسـكرية ناجحة في إسـبانيا وإفريقيـا حيث أحرز نصرًا حاسـمًا علـى هانيبال. وقد اتهم بالفسـاد واستبعد من روما.

Severus, L. Septimius

سـفيروس (ال. سـيبتيميوس). إمبراطـور رومانـي فـي الفتـرة ١٩٣-٢١١م. ولـد عـام ١٤٦، وتولى قيادة الجيـش في عهد كل من ماركـوس أُوريليـوس وكومودوس. وفـي عام ١٩٣، نادى به جيشـه فـي إيليريـا إمبراطورًا فتوجه إلى روما. وبعد وفـاة جوليانوس، ألحق هزيمة بسـينيوس نيجر الذي نادى به الفيلق الشرقي للجيش الروماني إمبراطورًا عام ١٩٤. وهزم كلوديوس ألبينوس الذي كان قد نودي به إمبراطورًا في جاول. ومات سفيروس في إبوراكوم (يورك).

Sforza, Cardinal

سفورتسـا (الكاردينـال). أسـكانيو سفورتسـا شـقيق لودوفيكـو ألمورو. استبعده البابا الإسكندر السادس (الذي كان داعمًا لانتخابه) حين كان شارل الثامن يستعد لغزو إيطاليا، فانضم إلى آلكولونا الذي كان يعمل لصالح فرنسـا. وبعد أن اسـتولى لويس الثامن على ميلانو عام ١٥٠٠ ألقى الفرنسيون القبض عليه.

Sforza

سفورتسا (والد فرنتشسكو). موتسيو أتندولو سفورتسا (١٣٩٦-١٤٢٤). مرتزق تدرب كما تدرب منافسه براتشيو على يد ألبيريكو دا باربيانو وقُتل سفورتسا وهو يعمل في جيش يوانّا ملكة نابولي.

Sforza, Francesco

سفورتسا (فرنتشسكو سفورتسا) (١٤٠١-١٤٦٦) أحد المرتزقة الذين التحقوا بخدمة دوق ميلانو فيليبو فيسكونتي (١٤١٢-١٤٤٧) وتزوج ابنته غير الشرعية بيانكا ماريا. وبعد وفاة فيسكونتي، استولى على الدوقية (١٤٥٠). وقد استطاع أن يحافظ بنجاح على وضعه في ميلانو، كما أن خمسةً من سلالته تناوبوا دوقية ميلانو.

Sixtus

سكستس. البابا سكستس الرابع الذي اختير لهذا المنصب عام ١٤٧١. واسمه فرنتشسكو ديللا روفيره وابن اخيه هو جليانو ديللا روفيره، الذي أصبح فيما بعد البابا يولويس الثاني، وقد توفي عام ١٤٨٤.

Soderini, Piero

سودريني (بييرو سودريني). انتخب عام ١٥٠٢ رئيسًا لقصر الرياسة مدى الحياة (أي رئيسًا للدولة من الناحية الفعلية). كان صديقًا حميمًا لماكيافللي. وقد اتبع سياسة داعمة للفرنسيين بصورة متماسكة. وفر من فلورنسا عند عودة آل مديتشي عام ١٥١٢.

Theseus

تيسـيوس. أحد أبطال أتيكا الأسطوريين. ابن أيجيوس ملك أثينا. من مآثره أنه ذبح الحيوان الخرافي مينوطور في متاهة كريت.

Quintius Titus

تيتـوس كونتيوس. هو فلامينيوس تي كونتيوس القنصل الروماني عام ١٩٨ ق.م. قاد حربًا ضد فيليب ملك مقدونيا الذي ألحق به الهزيمة عام ١٩٧.

Antonio Da Venafro

أنطونيـو (أنطونيو دا فنافرو). مستشـار باندولفو بتروتشـي حاكم سـيينا الذي ساعده ليكون في هذا المنصب وسفيره. كان موجودًا في ماجيوني عام ١٥٠٢ عندما قام مرتزقة قيصر بورجيا بمؤامرتهم ضده.

Vitelli, Niccoló

فيتيللـي (نيقولـو فيتيللـي) أوليفروتـو حاكم شـيتا دي كاسـتللو. هاجمه البابا سكسـتس الرابع الذي شيد، كما ذكر ماكياڤللي، حصونًا قـام نيقولو بهدمها بعد أن اسـترجعها لورنتسـو دي مديتشـي. ومات نيقولو عام ١٤٨٦.

Vitelli, Paulo

فيتيللـي (باولـو فيتيللـي). عمـل كمرتزقة في فلورنسـا فـي إطار أعمالهـا الحربية ضد بيزا عام ١٤٩٨. وتم سـجنُه بسـبب الشـك في خيانته، وإعدامُه عام ١٤٩٩.

The Vitelli

ألفتيلـي. عائلـة مرتزقـة نبيلة مـن عائلات شـيتا دي كاسـتللو في الولايات الرومية.

Vitelozzo

فيتللوتسـو. هو فيتللوتسو فتيللي قائد مرتزقة وشقيق باولو فتيللي الذي زامله في العمل مع قوات فلورنسـا العسـكرية. هرب عندما تم إعدام باولو بتهمة الخيانة. انضم إلى قوات قيصر بورجيا ولعب دورًا في التآمر عليه. وتم قتله في سنجاجليا عام ١٥٠٢.

Xenophon

إكسـنوفون. [ويُنطق أيضًا «زينوفـون»]. أثيني من القرن الخامس قبل الميلاد. رافق الجيـش اليوناني الذي زحف بقيادة قورش الملك ضـد الملـك ارتكسـتثرا (ارتحشـتا) عـام ٤٠١. وقـاد اليونانييـن في انسحابهم الشهير الذي سجله في كتابه أناباسيس.

إصــدارات

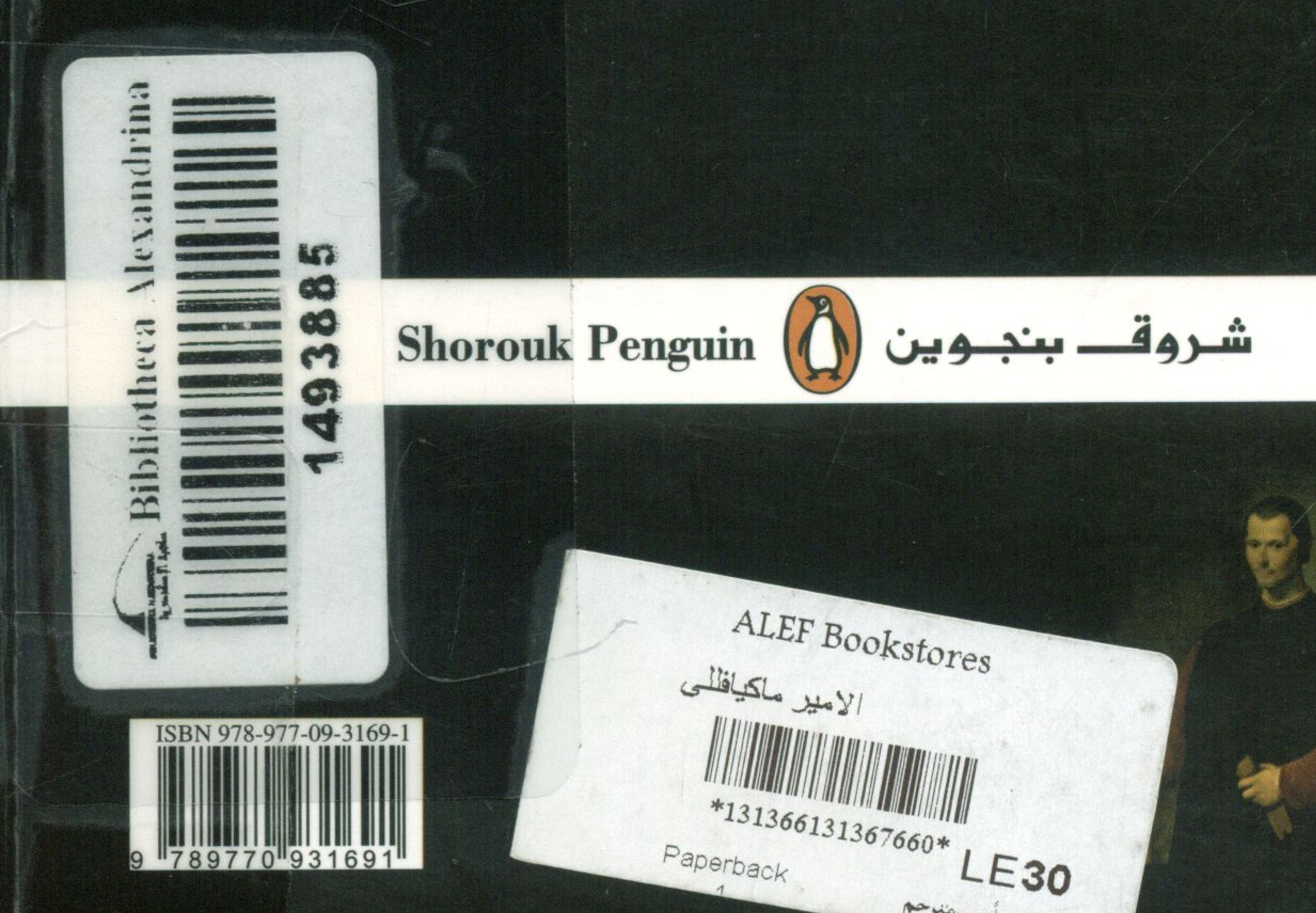
شـروقـ بنجـوين Shorouk Penguin

- **دون كيخوته** ثربانتس
  ترجمة: عبد الرحمن بدوي
- **أندروماك** چان راسين
  ترجمة: طه حسين
- **الأمير** نيقولو ماكيافللي
  ترجمة: محمد مختار الزقزوقي
- **هاملت** وليم شكسبير
  ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا
- **ترويض الشرسة** وليم شكسبير
  ترجمة: سهير القلماوي
- **السيدة صاحبة الكلب وقصص أخرى** أنطون تشيخوف
  ترجمة: أبو بكر يوسف
- **الحاج مراد** ليو تولستوي
  ترجمة: مجد الدين حفني ناصف
- **المتحذلقات** موليير
  ترجمة: محمد بدران ـ محمد عبد الحافظ معوض
- **پيجماليون** جورج برنارد شو
  ترجمة: محمد عناني
- **القضية الغريبة للدكتور چيكل ومستر هايد** روبرت لويس ستيڤنسون
  ترجمة: محمد عناني
- **تورتيلا فلات** چون شتاينبك
  ترجمة: سيد جاد
- **مغامرات توم سوير** مارك توين
  ترجمة: سحر توفيق

«على المرء أن يكون ثعلبًا ليعي الفخاخ المنصوبة له، وأن يكون أسدًا ليرهب الذئاب». هذه هي رسالة كتاب الأمير الذي أثار صدمة لدى صدوره في أوربا بسبب دعوته إلى امتلاك القوة المطلقة، ونبذ المعايير الأخلاقية التقليدية كافة.

أصبح اسم نيقولو ماكياڤللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) مرادفا لعبارة الغاية تبرر الوسيلة، وأضحت الماكياڤللية مصطلحا سياسيًا يترجم العبارة السابقة. وقد عمل ماكياڤللي في العديد من الدواوين الملكية والبابوية. وتمت محاكمته عام ١٥١٣ بتهمة التآمر على آل مديتشي: مما أدى إلى اعتزاله الحياة العامة بعد إطلاق سراحه؛ حيث وضع مسودة كتاب الأمير، وفي الفترة نفسها تقريبا كتب كتابه الشهير «خطاب أو ديالوج بشأن لغتنا». كما قام بكتابة رواية قصيرة وطائفة من القصائد والمسرحيات في السنوات العشر ما بين ١٥١٥ و ١٥٢٥. وفي عام ١٥٢٥، زار ماكياڤللي روما ليقدم كتابه عن تاريخ فلورنسا إلى البابا كليمنت.

على الرغم من وجود ترجمات عديدة إلى العربية لكتاب الأمير، فإن هذه الترجمة لمحمد مختار الزقزوقي والتي صدرت لأول مرة عام ١٩٥٨، هي بلا شك أفضلها وأكثرها دقة ورصانة. والمترجم من كبار المترجمين المصريين، عمل في الأربعينيات من القرن الماضي معلمًا في المملكة العربية السعودية؛ حيث أسهم في التأسيس والإشراف على العديد من المدارس هناك.



ISBN 978-977-09-3169-1
9 789770 931691